ات في اليهودية (٤)

سِفر التكوين

في ميزان القرآن الكريم

أولاد إبراهيم عليه السلام

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي



دراسات في اليهودية «٤»

سفر التكوين

في ميزان القرآن الكريم

أولاد إبراهيم عليه السلام

الدكتور

صلاح عبدالفتاح الخالدي

الطبعة الأولى

١٤٢٥-٢٠٠٤





ISBN: 9957-29-011-8 :الرقم الدولي

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (٢٠٠٤/٩/٢٨٣٨)

العنـــوان: ســـفر التكـــوين في ميـــزان القـــرآن الكريم أولاد إبراهيم عليه السلام

تاليف: د. صلاح عبدالفتاح الخالدي

الصف والإخراج: ابن مقلة - عمان - الأردن

+ ٩٦٢ ٧٧٣٧٢٤٠٣

تصميم الغلاف: دار الفن - عمان - الأردن

+ ٩٦٢ ٦ ٥٦٥٨٧٨٧

عدد الصفحات: ٢٠٠

القياس: ١٤ * ٢٠

دار العلوم للنشر والتوزيع

العبدلي - مقابل البنك العربي

تلفاكس: ٥٦٦٤٣٢٨ - ٥٦٢٧٨٢٨ (٦ ٩٦٢ +)

ص.ب ٩٢٥٠٣٢ عمان ١١١٩٠

عمان - الأردن

aloloum@hotmail.com

تنفيذ وطباعة برجي

٣١٢١٢٤/ ٩٦١١٣٣٣٤٦٤٨+

عمان: ٩٦٢٧٩٥٦٩٨٦٩٩+

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نَحمدُه ونَستعينُه، ونَتوبُ إليه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنفسِنا، ومن سيّئاتِ أَعمالِنا، مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأَشهدُ أَنْ لا إِلهَ إِلاّ الله، وحدَه لا شريكَ له، وأَشهدُ أَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه أَجمعين.

أمّا بعد:

فهذه هي الحلقةُ الرابعةُ من سلسلةِ «دراسات في اليهودية» التي عَزَمْنا على إِصدارِها بعونِ الله وتوفيقِه، والتي نُعَرِّفُ فيها القُرّاءَ الكرامَ على الدينِ اليهوديِّ المحَرَّف، الذي يَقومُ على مزاعم وادّعاءاتِ الأَحبارِ في أَسفارِ العهدِ القديم، ليَعرِفوا مَنْ هم أَعداؤهم اليهودُ الأَشَدُّ عداوة، وما الذي يُؤْمنونَ به، ويَتعلَّمونَه، ويُنَشَّأُونَ عليه، وما هي خلفيتُهم الدينية، التي تُحَرِّكُهم ضِدَّنا، وتُصَعِّدُ عداوتَهم لنا.

على الدارسين والباحثين مِنّا أَنْ يَعكُفوا على أَسفارِ العهدِ القديم، يَدْرسونَها ويَبحثونَ فيها، ويُحَلّلونَها ويَنْقُدونَها، ويَقفون على أَكاذيبِها ومزاعِمها وانحرافاتِها وضلالاتِها..

وأَنْ يَنطلقوا في ذلك من القرآنِ الكريم، لأَنه هو الحَقُّ والصِّدقُ والصَّواب، وقد تكفَّلَ بفضْحِ الأَحبارِ الكفار، وكشْفِ زُيوفِهم وافتراءاتِهم، فهو الميزانُ الصادقُ الذي يجبُ أَنْ توزَنَ به أَسفارُ العهدِ القديم، لمعرفةِ خطئِها وصوابِها، وهو المنظارُ الكاشفُ الذي يجبُ أَنْ يُنْظَرَ من خِلالِه إلى تلك الأَسفار، لمعرفةِ صِدْقِها وكَذِبِها، وهو الحَكَمُ المهيمنُ الذي يجبُ أَنْ تُحملَ عليه، وأَنْ تُحاكَمَ إليه..

وهذه الحلقةُ الرابعةُ مُتَمَّمَةٌ للحلقةِ الثالثةِ ومكَمِّلَةٌ لها، لأَنَّ موضوعَ الحلقَتَيْن واحد، وهو دراسةُ إِصحاحاتِ سِفْرِ التكوينِ الخمسين دراسةً قرآنية، وَوَزْنُها بميزانِ القرآن، وكان من الممكنِ إِصدارُ هذه الدراسةِ في حلقةٍ واحدة، لكنَّ حَجْمَها سيكونُ كبيراً، لا يتفقُ من حجْمِ حلقاتِ هذه السلسلة، فاجتهدْنا تقسيمَ هذه الدراسة إِلى قسمين:

القسمُ الأول: أَصدَرْناهُ في الحلقةِ الثالثة، وتَناولَ نِصْفَ إِصحاحاتِ السِّفْر، وتحدَّثْنا فيه عن بدايةِ تكوينِ الكونِ، ونشأَةِ الخليقةِ والإِنسان، ووقَفْنا في نهايتِه عند نهايةِ سيرةِ إِبراهيمَ عليه السلام، كما رواها الأَحبارُ في الإِصحاحاتِ الأُولى من سِفْرِ التكوين، من الإِصحاحِ الأَولِ إِلى نهايةِ الإِصحاحِ الخامسِ والعشرين.

القسم الثاني: خَصَّصْنا له هذه الحلقةَ الرابعةَ من هذه السلسلة.

وتحدَّثْنا فيه عن النصفِ الثاني من سِفْرِ التكوين، وهو الذي تَحَدَّثَ فيه الأَحبارُ عن أَولادِ إبراهيمَ عليه السلام.

وقد ضمَّتْ هذه الحلقةُ المباحثَ التالية:

الأَول: ولادةُ إِسماعيلَ وإِسحاقَ بين سِفْرِ التكوينِ وحقائقِ القرآن.

الثاني: سيرةُ إِسحاقَ عليه السلام.

الثالث: سيرةُ يَعقوبَ عليه السلام.

الرابع: يَعقوبُ عليه السلام في الأَرضِ المقدسة.

الخامس: سيرةُ يوسُفَ عليه السلام بين سِفْرِ التكوينِ والقرآنِ الكريم.

السادس: يوسفُ عليه السلام ومراودةُ النسوة.

السابع: يوسفُ عليه السلام يُعبِّرُ الرؤى.

الثامن: بينَ يوسفَ وإِخوتِه.

التاسع: آلُ يعقوبَ في مصر.

وقد حرصْنا في هذه الدراسة على أَنْ نبقى مع القرآن، وأَنْ ننظرَ للأَسفارِ من خلالِ القرآن، وأَنْ نَزِنَ كلامَها بميزانِ القرآن، وأَنْ نُسجلَ الفروقَ بين كلامِ الأَحبارِ وعَرْضِ القرآن، فما وافقَ القرآنَ قبلْناهُ، لأَنه

وردَ في القرآن، وما خالفَ القرآنَ رفضْناهُ ورَدَدْناه، وجَزَمْنا بكَذِبِه وبُطلانِه، وما سَكَتَ عنه القرآنُ سَكَتْنا عنه، وتوقَّفْنا فيه، فلم نُصَدِّقْه ولم نُكَذِّبْه، وما انفردَ به القرآنُ مما لم يذكُرْه الأَحبارُ اعتمدْناهُ وقُلْنا به ..

ونُقَدِّمُ هذه الدراسةَ للقراءِ الكرام، لعلَّهم يجدونَ فيها بعضَ الفائدةِ والنفع، ونتوَّجَهُ بها إلى الله، راجين منه جزيلَ الثوابِ وعظيمَ الأَجر.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي

الاثنين ٢٢/٦/١٤٢٥هـ

الموافق ٩/٨/٢٠٠٤م

ولادة إسماعيل وإسحاق بين سفر التكوين وحقائق القرآن

خَصَّصَ الأَحبارُ الإِصحاحَ السادسَ عشرَ للحديثِ عن هاجرَ وإسماعيلَ عليه السلام، قالوا: «وأَما ساراي امرأةُ أَبرامَ، فلم تَلِدْ له، وكانتْ لها جاريةٌ مصريةٌ اسْمُها هاجر .. فقالتْ له ساراي: الربُّ منعَ عنّي الولادة، فضاجِعْ جاريتي، لعلَّ الرَّبَّ يرزُقُني منها البَنين!» [التكوين١٦: ١-٢].

سارةُ تُقَدِّمُ جاريَتَها هاجرَ لإبراهيمَ عليه السلام، ليتَسَرّى بها، وإذا أَنجبتْ هاجرُ منه يكونُ الولَدُ لسارة، مع أَنها ليستْ أُمَّه، ولذلك تَقولُ سارةُ لإبراهيم، لعلَّ اللهَ يرزُقُني منها البَنين!!

هذا ادِّعاءٌ إسرائيليّ، أَخَذَهُ الأَحبارُ من نَظَراتِ البابليّين وشرائِعِهم، وجعلوهُ من كلامِ الله، ولذلك عَلَّقَ الرهبانُ على هذا الكلام قائلين: «كان شرعُ ما بينَ النَّهرين يمنحُ الزوجَة العاقِرَ الحقَّ بأَنْ تُقَدِّمَ لزوجِها خادمةً كزوجةٍ له، وأَنْ تعترفَ بأَنَّ الأَولادَ المولودين من هذا الزواجِ هم أَولادُها..» [العهد القديم: ٩، حاشية: ٢].

ومن المعلومِ أَنَّ الابْنَ يُنْسَبُ لأُمِّه التي ولدَتْه، وإنْ كانتْ جاريةً رقيقة، ولهذا مَنْ ستلدُهُ هاجرُ سيُنْسَبُ إليها، ولا يُنْسَبُ إلى سيدتِها سارة.

مزاعم الأَحبار حول سارة وهاجر:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ هاجرَ لما حملَتْ تَكَبَّرَتْ على سيدتِها، قالوا:

«فضاجَعَ أَبرامُ هاجَرَ فَحَبِلَتْ، فلما رأَتْ أنها حَبِلَتْ صَغُرَتْ سيدَتُها في عينَيْها! فقالت ساراي لأَبرام: غَضَبي عليك، دفعْتُ جاريَتي إلى حضْنِك، فلما رأَتْ أَنَّها حَبِلَتْ صَغُرْتُ في عينَيْها، الربُّ يحكمُ بيني وبينَك!

فقالَ لها: هذه جاريتُك في يدِك، فافْعَلي بِها ما يَحلو لك .. فَأَخَذَتْ ساراي تُذِلُّها، حتى هربَتْ من وجْهِها..» [التكوين١٦: ٤-٦].

إِنَّ زَعْمَ الأَحبارِ مردود، لأَنه لا يَتَّفِقُ مع إِيمانِ الأَشخاصِ الثلاثة: إِنَّ هاجَرَ مؤمنةٌ صالحة، لذلك لا تتكَبَّرُ على سيدتِها ..

وإِنَّ إِبراهيمَ عادلٌ لا يرضى بالظلم، فلا يُطْلِقُ يَدَ سارةَ في هاجر تُذِلَّها.

وإِنَّ سارةَ مؤمنةٌ لا تَقْبَلُ بالظلم، فيكفَ تَظلمُ هاجَرَ وتُهينُها.

وهذا معناه أَنَّ هاجَرَ لم تهربْ من بيتِ إِبراهيم!

وبَنى الأَحبارُ على زعمِهم السابقِ مَزاعمَ أُخرى. قالوا: «ووجَدَ مَلاكُ الربِّ هاجرَ على عينِ ماءٍ في الصحراءِ على طريقِ شُور، فقال لها: يا هاجرُ خادمةَ ساراي: مِنْ أَينَ جئتِ؟ وإلى أَينَ تَذْهَبين؟ .. قالتْ: إِني هاربةٌ من وجْهِ سيدَتي ساراي .. فقالَ لها مَلاكُ الربِّ: ارْجِعي إِلى سيدتِك واخْضَعي وتَذَلَّلي لها .. ولأُكَثِّرَنَّ نَسْلَكِ، حتى لا يُحصى لكثرته! .. وها أَنتِ حُبْلى، وستَلِدين ابناً، وتُسَمِّينَه إِسماعيل، لأَنَّ الرَّبَّ سمعَ صوت

شقائِك .. وسيكونُ رَجُلاً كحمارِ الوحْش، يَدُه على الجميع، ويَدُ الجميعِ عليه، وسيسكنُ في وجْهِ جميع إخواتِه ..

فنَادَتْ هاجرُ الربَّ الذي خاطَبَها: أَنتَ اللهُ الذي يَراني .. لذلك سُميت البئر: بئْرَ الحَيِّ الرّائي، وهي بين قَادَشَ وشُور، لأَنها قالَتْ: هنا حَقّاً رأَيتُ اللهَ الذي يَراني!

وكان أَبرامُ ابنَ سِتٍّ وثَمانين سنةً حين ولدَتْ له هاجرُ إسماعيلَ..»

[التكوين ١٦: ٧-١٦].

هل رأت هاجر الله؟

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ هاجرَ هربَتْ من البيتِ إلى البَرِّيَّة في منطقةِ النَّقَب، ووقفَتْ على عينِ ماءٍ هناك، ورأَت الربَّ وكَلَّمَتْه.

والأَحْبارُ -والرُّهبانُ- حريصونَ على «تجسيمِ» الرّبّ، وتصويرِه بصورةٍ ماديةٍ مجسَّمَةٍ محسوسَة، وجعلِه إنساناً ينزلُ ويَسيرُ ويَتحرك، ويُخاطِبُ ويُحاوِرُ!!

وقد عَلَّقَ الرهبانُ في ترجمتِهم سِفْرَ التكوينِ على قولِ الأَحبار: «ووَجَدَ ملاكُ الربِّ هاجرَ على عينِ ماءٍ في الصحراء» بقولهم: «ليس مَلاكُ الربِّ في النصوص القديمةِ مَلاكاً مخلوقاً يختلفُ عن الله، بل هو اللهُ نفسُه (!!) بالشكلِ المنظورِ الذي يَظهرُ فيه للبشر!» [العهد القديم: ٩٠، حاشية رقم: ٣].

إنَّ الرهبانَ يُريدون أنْ يُؤكّدوا تجسيمَ الله، ونفيَ كونِ المرادِ بملاكِ الربِّ أَحَدَ الملائكةِ متمثِّلاً في صورةِ بَشَر، وأَنْ يَنزلَ إلى الأَرضِ ويَسيرَ عليها، فتراهُ هاجرُ رجلاً أَمامَها، وتُخاطبُه ويُخاطبها، وتَسمعُ كلامَه الخارجَ من فمِه!!

وهذا كفرٌ باللهِ، وتجسيمُه وتحويلُه إلى بَشَر، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، فهو مُنَزَّهٌ عن صفاتِ البَشَر. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾.

وفَرِحَتْ هاجرُ برؤيتِها الرَّبَّ وحوارِها معه، وزَعَمَ الأَحْبارُ أنها قالَتْ: «هنا حَقّاً رأيتُ الذي يَراني». أَيْ: رأيتُ اللهَ الذي يراني رؤيةً حقيقةً ماديةً مجسَّمة، وسَمّت المكانَ: بِئْرَ الحَيِّ الرّائي..

ويُكَذِّبُ القرآنُ الأَحبارَ في هذا الزعم، عندما يُقَرِّرُ أنه لا يمكنُ لإِنسان أَنْ يَرى اللهَ في الدنيا، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ فإذا كان موسى النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ لا يَرى اللهَ فهل تَراهُ هاجرُ غيرُ النَّبية؟

ومن مزاعمِ الأَحبارِ تحديدُهم عمرَ إبراهيمَ عليه السلام بأنه كانَ يومَ ولادةِ إسماعيلَ سِتّاً وثمانين سنة، وهذا من ادِّعاءاتِهم التي ليس عليها دَليل، ونحن نتوقَّفُ في هذا، فلا نُصَدِّقه ولا نُكَذِّبُه..

ومن مزاعِمهم، أَنهم فَسَّروا معنى اسم «إسماعيل»: «لأَنَّ الربَّ قد سمعَ صوتَ شقائِك..»، ونحن نتوقَّفُ في هذا التَّفسير، ونرى أَنَّ

«إِسماعيل» المذكورَ في القرآن اسْمُ علمٍ أَعجمي، وليسَ عربيّاً مشتَقاً!

الرب يبشر إبراهيم بإسحاق:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنه بعدَ ولادةِ إِسماعيلَ بفترةٍ تجلّى الربُّ لإِبراهيمَ في صورةِ رَجُل، وبَشَّره بابنِه إِسحاقَ من امرأَتِه سارَة، وذلك عندما غَيَّرَ اسْمَه من أَبرامَ إِلى إِبراهيم، وغَيَّرَ اسْمَ امرأَتِه من ساراي إِلى سارَة.

قالوا: «.. وقالَ اللهُ لإِبراهيم: أَمّا سارايُ امرأَتُك فلا تُسَمِّها ساراي، بل سارَة، وأَنا أُبارِكُها، وأُعطيكَ منها ابْناً، وأُباركُها فيكونُ منها أُمَمٌ وشعوب، ويَخرجُ من نسلِها ملوك!

فوقَعَ إِبراهيمُ على وجْهه ساجِداً وضَحِك، وقالَ في نفسِه: أَيولَدُ وَلَدٌ لابنِ مائةِ سنة؟ أَمْ تلدُ سارةُ وهي بنتُ تسعينَ سنة؟

ثم قالَ إِبراهيمُ لله: ليتَ إِسماعيلَ أَمامَ وجْهك! .. فقالَ اللهُ له: بل سارةُ امرأَتُك ستَلِدُ لك ابْناً، وتُسمّيه إِسحاق، وأُقيمُ عَهدي معه عَهْداً أَبَدِيّاً، لأَكونَ له إِلهاً، ولنسْلِه مِنْ بعدِه! .. وأَمّا إِسماعيلُ فقد سمعْتُ قولَكَ فيه، وها أَنذا أُبارِكُهُ وأُنميهِ وأُكَثِّرُهُ جداً، ويَلِدُ اثْنَيْ عَشَرَ رئيساً، وأَجعَلُه أُمَّةً عظيمة .. ولكنَّ عهدي أُقيمُه مع إِسحاق، الذي ستَلِدُه سارةُ في مثل هذا الوقتِ من السنةِ المقبلة ..

ولَمّا قالَ اللهُ لإِبراهيمَ هذا الكلامَ ارتفعَ عنه» [التكوين١٧: ١٥-٢٢].

ملاحظات على رواية الأحبار:

من الملاحظاتِ على هذه الروايةِ الإسرائيلية:

١-تَجلّي اللهِ لإبراهيمَ عليه السلام، ووقوفُه أَمامَه، وحوارُه معه، وإجابَتُه على أَسئلتِه، كما يُجيبُ أَيُّ رجلٍ رَجُلاً آخَرَ. وبعدَ انتهاءِ المقابلةِ والحوارِ ارتفعَ الإلهُ البَشَرُ إلى السماء!! وهذا كُفْرٌ وضلال.

٢-تَعَجُّبُ إبراهيمَ واستغرابُه، وضحِكُه من الوعدِ والبشارة، وكأَنَّه غَيْرُ مُصَدِّقٍ له، حيثُ زَعَمَ الأَحبارُ أَنه قال: «أَيولَدُ وَلَدٌ لابنِ مائةِ سنة؟ أَمْ تَلِدُ سارةُ وهي ابنةُ تسعينَ سنة؟».

وإبراهيمُ الذي نعرفُه رسولُ كريمٌ عليه السلام، مؤمنٌ بالله، مُصَدِّقٌ بوعْدِه، مُتَأَدِّبٌ معه، ولا يَصدُرُ عنه ما نسبَه له المفترونَ الأَحبار.

٣-الربُّ يُفَضِّلُ إسحاقَ على إسماعيل، ونَسْلَ إسحاقَ على نَسْلِ إسماعيل، مع أَنَّ الإثنين ابْنانِ لإبراهيم. حيثُ وَعَدَ الربُّ أَنْ يجعلَ عهدَه الأَبديَّ مع إسحاقَ ونسلِه، وأَنْ يكونَ إلهاً لإسحاقَ ونَسْلِه!!

وهذا افتراءٌ كاذبٌ من الأَحبارِ! لقد جَعَلوا الربَّ رَبّاً خاصّاً بهم، وإلهاً خاصّاً بهم، وزَعَموا أَنَّ اللهَ قال: «وأُقيمُ عَهدي معه عَهْداً أَبديّاً، لأَكونَ له إلهاً، ولنسلِه مِنْ بعدِه».

٤-فَسَّروا معنى «إِسحاق» بأنه: الذي يَضْحك، لأَنَّ أَباهُ ضَحِكَ مستَغْرِباً عندما بُشِّرَ به، وأُمَّه ضحكَتْ مُستبعِدَةً ذلك أَيضاً. ولَسْنا معهم في هذا التَّفسير، ونرى أَنَّ اسْمَ «إِسحاقَ» المذكورَ في القرآنِ أَعجمي، وليس عربيّاً مشتَقّاً، فلا نَبحثُ له عن معنى في العربية.

تناقض الأَحبار في روايتهم:

هذا وقد وَقع الأَحبارُ في تَناقُضٍ عَجيبٍ في حديثِهم عن تبشيرِ إِبراهيمَ بإِسحاق.

فقد ذَكَروا في الإِصحاحِ السابعِ عَشَرَ أَنَّ الربَّ تجلّى لإِبراهيمَ وحْدَه، وبَشَّرَهُ بإِسحاقَ وهو وحيدٌ، ليس معه أَحد، ووَعَدَهُ أَنْ يُعطيَهُ أَرضَ الميعادِ، له ولنسلِه للأَبَد، وجعلَ الختانَ علامةً لذلك الوعد.

بينما ذَكَروا في الإِصحاحِ الثامنِ عَشَرَ أَنَّ الرَّبَّ بَشَّرَ إِبراهيمَ بهذه البشارة، عندما كان ذاهِباً مع اثْنَيْن من الملائكةِ، لتدميرِ قُرى قومِ لوط، حيث قَدَّمَ لهم إِبراهيمُ عِجْلاً مشويّاً، وبعدَما أَكلوا تابَعَ الملَكانِ الرجلانِ سَيْرَهما إِلى قُرى قومِ لوط، وبقيَ الربُّ واقِفاً مع إِبراهيم، الذي كانتْ معه امرأَتُه سارَة!!

وقد ناقَشْنا تجلّي الثلاثةِ لإِبراهيمَ في صورةِ بَشَر أَثناءَ حديثِنا عن روايةِ الأَحبارِ لتدميرِ قرى قومِ لوط.

قال الأَحبار: «ثم قالوا: أَيْنَ سارَةُ امرأَتُك؟ قال: هي في الخيمة، فقالَ: أَحدهم: سأَرجعُ إِليك في مثلِ هذا الوقتِ من السنةِ المقبلَة، ويكونُ لسارةَ امرأتِك ابْنٌ!

وكانتْ سارةُ تتسَمَّعُ عندَ بابِ الخيمةِ وراءَه .. وكان إِبراهيمُ وسارةُ شيخَيْن متقدِّمَيْن في السِّنّ، وقد انقطعَ عن سارةَ ما يَجري للنِّساء .. فضحكَتْ سارةُ في نفسِها، وقالَتْ، أَبَعْدَ ما عَجَزْتُ وشاخَ زوجي، تكونُ لي هذه المُتْعةُ؟ فقالَ الربُّ لإِبراهيم: ما بالُ سارةَ ضحكَتْ وقالَتْ: أَحَقّاً أَأَلِدُ وأَنا الآنَ في شيخوخَتي؟ أَيصعبُ على الربِّ شيء؟ في مثلِ هذا الوقتِ من السنةِ المقبلةِ أَعودُ إِليكَ، ويكونُ لسارةَ ابْنٌ.

فأَنْكَرتْ سارَة، وقالَتْ: ما ضحكْتُ. فقال الربُّ: لا بل ضحكْتِ»

[التكوين١٨ : ٩-١٥].

ملاحظات على الرواية المتناقضة:

من الملاحظات على هذه الرواية:

١-الرَّبُّ يَسأَلُ إِبراهيمَ عن امرأَتِه سارَة، وهو لا يَعلمُ أَنها داخلَ الخيمة، وأَنها أَعَدَّتْ لهم الطعامَ الذي أَكَلوه! وهل الربُّ يجهلُ مكانَها ويضطرَّ ليسأَلَ عنها؟!

٢-عندما سمعتْ سارةُ البشارةَ بإِسحاقَ ضحكَتْ، وكان ضحكُها استبعاداً وإِنكاراً، وكأَنَّها لا تُصدِّقُ بهذا الوَعْد .. بينما زَعَمَ الأَحبارُ في

الإِصحاحِ السابق أَنَّ الذي ضَحِكَ واستبعدَ هو إِبراهيم، فَمَنْ منهما الذي ضحكَ مستبعِداً مُنْكِراً؟؟

٣-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ سارةَ كَذَبَتْ أَمامَ الله، فهو يسأَلُ إِبراهيمَ: ما بالُ سارةَ ضَحِكَتْ؟ فأَنكرتْ قائلةً: ما ضحكْتُ، فقالَ اللهُ: بلْ ضَحِكْتِ..

زعموا أَنها كَذَبَتْ، وأَنها كَذَّبَت الرَّبَّ، فهو يقول: إِنها ضَحِكَتْ، وهي تكذِّبه قائلة: ما ضَحِكْتُ، فيؤَكِّدُ هو كلامَه: لا بل ضَحِكْتِ..

هل هذا كلامُ الرَّبِّ لعبادِه، أَم هو جلسةٌ حواريةٌ حولَ الطاولة، يجلسُ الربُّ، وبجانبِه إِبراهيمُ، وسارةُ بجانبِ زوجِها، ويَتَحاورونَ ويَتَناقشون، ويُكَذِّبُ بعضُهم بعضاً؟!

حديث القرآن عن البشارة:

وفرقٌ بين روايةِ الأَحبارِ لحادثةِ تبشيرِ إِبراهيمَ بإِسحاق، القائمةِ على الزعمِ والافتراءِ والكذبِ والتناقض، وبينَ كلامِ القرآنِ عنها.

قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦ ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦].

أَخْبَرَنا القرآن أَنهم ضيوفٌ دَخَلوا على إِبراهيمَ عليه السلام، أَي أَنهم كانوا ملائكةً مُتَحَوِّلين إلى رجالٍ أَتوه، وهو لا يَعلمُ أَنهم ملائكة، وردَّ عليهم إبراهيمُ تحيتَهم، وأَخبرهم أَنَّه وَجِلٌ خائفٌ منهم، لأَنهم لم يأكُلوا من طعامِه، كما أَخبرتْ آياتُ سورةِ هود، وأَزالوا وَجَلَه وخَوْفَه، وأَخبروه أَنهم ملائكة، وبَشَّروهُ بغلامٍ عليم، وهو ابنُه إِسحاق، فعَجِبَ من البشارةِ لأَنه مسَّه الكِبَر، ولم يكنْ عَجَبُه إِنكاراً أَو استبعاداً أَو تكذيباً، إنما كانَ من وقْعِ المفاجأة، فأَخْبَروه أَنها بشارةٌ بالحقِّ، لأَنَّ اللهَ هو الذي سيَهَبُهُ الغُلامِ، فلا يَقنطْ وييأسْ ويُكَذِّبْ، فأَخبرهم أَنه لا يُكَذِّبُ ولا يَقْنَطُ، لأَنَّ الضّالّين هم الذين يَقْنَطونَ من رحمةِ الله.

إِنه حوارٌ إِيمانيٌّ بينَ إِبراهيمَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وبين الملائكةِ المتَحوِّلين إِلى رجال، يقومُ على الأَدبِ واللطفِ في الحوار، وليس على التكذيبِ والإِنكار.

وقال تعالى عن نفسِ الحادثةِ في سورةِ هود: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى

شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩-٧٣].

وَصَفَ اللهُ الملائكةَ المتحَوِّلينَ إلى رجالٍ بأنَّهم رسلُه، لأَنَّ اللهَ أَرسلَهم في مهمةٍ عندَ إبراهيمَ، وهي تَبشيرُه بإسحاق، وفي مهمةٍ أُخرى عند لوطٍ عليه السلام، وهي تبشيرُه بهلاكِ قومِه الشّاذّين. ولم تّذكر الآيةُ عَدَدَهم، ونحن نَبْقى مع القرآن، فلا نُبَيِّنُ ما أَبهمه القرآنُ.

ولما جاءُوا إِبراهيمَ عليه السلام لم يَعلمْ هوِيَّتَهم الحقيقية، وظَنَّهم رجالاً غُرباء مسافرين، ولذلِك ماأَنْ حَيَّوْهُ ورَدَّ التحيةَ بأَحسنَ منها حتى سارَعَ بتقديمِ عجْلٍ مشويٍّ أَمامَهم، ودَعاهم إلى الأكْلِ منه.

ولكنهم لم يَمُدُّوا أَيديَهم إليه، لأَنهم ملائكةٌ لا يأْكُلون ولا يَشربون، ولما رأى إبراهيمُ عليه السلام أَيديَهم لا تَصِلُ إلى الطعامِ نَكِرَهم، وأَوجسَ منهم خيفة، وظَنَّ أَنهم يُريدونَ به شَرّاً، لأَنَّ من العاداتِ القديمةِ أَنه إذا لم يأكل الضيفُ من طعامِ صاحبِ البيتِ فإنه يريدُ به سوءاً.

عند ذلكَ أَخبروه أَنهم ملائكة، وأَنَّ اللهَ أَرسلَهم لتدميرِ قومِ لوط..

موقف سارة من البشارة:

وكانت امرأتُه سارةُ واقفةً، فسمعت البشارةَ بتدميرِ الكافرين، ففرِحَتْ

وسُرَّتْ وضَحِكَتْ، لأَنها كانَتْ تتمنّى إهلاكَهم لكفرِهم وشذوذِهم، ومن المعلومِ أَنَّ المؤمنَ يَفرحُ ويَضحكُ لهلاكِ الأَعداءِ الكافرين!

ورأى الملائكةُ ضحكَ سارةَ وسُرورَها، فَبَشَّروها بأَنها ستلدُ إِسحاق، وستبقى حيةً حتى ترى حَفيدَها يعقوب.

فوجئتْ سارةُ بهذه البشارة، وصَكَّتْ وجْهَها بكَفِّها، كما أَخبرنا القرآنُ في موضعٍ آخر. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

وسؤالُ سارةَ رضي الله عنها وعَجَبُها ليس من بابِ الإِنكارِ أَو التكذيب، لأَنها مؤمنةٌ بالله، مُصَدِّقَةٌ بوعْدِه، ولكنه ناتجٌ عن هول المفاجأة، فهي عجوزٌ عقيم، لم تَلِدْ في شبابِها، وزوجُها شيخٌ طاعنٌ في السِّنّ، أَبَعْدَ هذا العمرِ وهذا الحال يُنجبان وَلَداً؟ إنه لَشيءٌ عجيب! وكونُه عَجيباً مفاجِئاً لا يَعني أنه مستحيل، ولذلك ردَّ الملائكةُ على عجبِها ودهشتِها بأَنَّ هذا أَمْرُ الله، وأَنه لا يَجوزُ للمؤمنِ أَنْ يَستبعدَ وقوعَ شيء

أَرادَه الله، لأَنه فَعّالٌ لما يُريدُ سبحانه!

إِنَّ الفرقَ بعيدٌ بينَ إِخبارِ القرآنِ الحَقِّ عن الحادثة وبين روايةِ الأَحبار المتناقضة، القائمةِ على الزعمِ والافتراء..

سارة تحقد على إسماعيل وأمه:

زَعَمَ الأَحبارُ مزاعمَ حولَ ولادةِ سارةَ لإِسحاق، ومن مزاعِمِهم قولُهم: «حَملتْ سارةُ وولدتْ لإِبراهيمَ ابناً في شيخوخَتِه .. فسمّاهُ إِسحاقَ، وخَتَنَ إِبراهيمُ إِسحاقَ ابْنَه وهو ابنُ ثمانيةِ أَيام، وكانَ إِبراهيمُ ابنَ مائةِ سنة. وقالَتْ سارة: جَعَلَ اللهُ لي ما يُضْحِكُ، وكُلُّ مَنْ سمعَ بذلك يَضْحَكُ بشأني .. مَنْ كانَ يقولُ إِن سارةَ ستُرضعُ لإِبراهيمَ بَنين؟ وها أَنا ولدْتُ له ابناً في شيخوخَتِه!» [التكوين٢١: ١-٧].

وهذه مزاعمُ لا دليلَ عليها في مصادرِنا الإسلامية، فنتوقَّفُ فيها.

لكنَّ سارةَ ما زالَتْ مستغربةً متعَجِّبَةً -حسبَ زعْمِ الأَحبار- رغم أَنها حَمَلَتْ وأَنجَبَتْ، وها هي تُرْضِعُ ابْنَها، ومع ذلك تَضْحَكُ على نفسِها، وكأَنها لا تُصَدِّقُ ذلك، وهذا الموقفُ منها لا يتفقُ مع شخصيتِها المؤمِنة .. يَحِقُّ لها أَنْ تتعجَّبَ مِن وقْعِ المفاجأة عند تبشيرِها بذلك، وهذا ما أَخبرَ عنه القرآن، أَمَّا أَنْ تبقى متعجبةً مستغربةً ضاحكةً مستهزئةً، حتى بعد حملِها وولادتِها، فهذا لم يَصدرْ عنها كما زعمَ الأَحبار!!

وتابعَ الأَحبارُ مزاعِمَهم حولَ سارَة، فأظهروها، بمظهرِ المرأةِ الحاقدةِ الشرّيرة، التي لا تَطيقُ أَنْ ترى إِسماعيلَ ولا أُمَّه.

قالَ الأَحبار: «وكَبُرَ الصبيُّ وفُطِم، وأَقامَ إِبراهيمُ وليمةً عظيمةً في يومِ فطامِ إِسحاق .. ورأَتْ ابنَ هاجرَ المصريةِ يلعَبُ مع ابنِها إِسحاق.

فقَالَتْ لإِبراهيم: اطْرُدْ هذه الخادمةَ وابْنَها! فإِنَّ ابنَ هذه الجاريةِ لا يَرِثُ مع ابني إِسحاق!!

وساءَ هذا الكلامُ إِبراهيمَ، لأَنَّ إِسماعيلَ ابْنَه أَيضاً..

فقالَ اللهُ له: لا يَسوؤُكَ هذا الكلامُ على الصبيِّ وعلى جاريتِك، اسْمَعْ لكلِّ ما تقولُه لك سارة، كلُّ ما تقولُه لك فاسْمَعْ له، لأَنه بإِسحاقَ يكونُ لك نَسْلٌ باسْمِك! وابنُ الجاريةِ أَيضاً أَجعلُه أُمَّةً لأَنه من صُلْبِك!»

[التكوين٢١: ٨-١٣].

من أكاذيب الأَحبار حول الحادثة:

هذه الروايةُ من مزاعمِ الأَحبارِ وأَكاذيبهم، وذلك لما يلي:

١- لا يُمكنُ أَنْ تكونَ سارةُ بهذا الحقدِ والشَّرِّ والبغضاء، أَخَوان يَلعبان معاً -على فرضِ صحةِ الحادثة- ماذا في ذلك؟ ولماذا يُثير هذا المنظرُ الأَخويُّ الإِنسانيُّ البريءُ حقْدَها وكراهيتَها؟

٢-تأمُرُ زوجَها أنْ يطردَ الجارية وابنَها -الذي هو ابنُه- وتَدْعوه إلى أنْ يتخلّى عن إنسانيتِه ومشاعرِه تجاهَ ابنِه وامرأتِه .. إنَّ سارةَ تُريدُ أنْ لا يرثَ إسماعيلُ من أبيه، لأنه ابنُ الجاريةِ هاجر! وهذا لا يَصْدُرُ عنها!

٣-يَستاءُ إبراهيمُ من طلبِ سارة، لأَنَّ إسماعيلَ ابنُه أيضاً، ويتوقّفُ عن التنفيذ، فيتدخَّلُ الربُّ لصالحِ سارةَ وابنِها إسحاق، ويأْمُرُ إبراهيمُ بتنفيذِ كلِّ ما تطلبُه منه سارة، لأَنها لا تطلبُ منه إلاَ ما يرضى عنه الربُّ.

يُصَوِّرُ الأَحبارُ الربَّ مُنحازاً لسارةَ وابنِها، وموافِقاً على طردِ هاجرَ وابنِها، لا لذَنْبٍ ارتكباه، إلاّ لأَنَّ السيدةَ سارةَ تُريدُ ذلك، ولْيَتَشَرّدا ويَتيها في البَرِّيَّة، إرضاءً لرغباتِ سارَة.

٤-الربُّ ينحازُ إلى إسحاق، ويفضِّلُه على إسماعيل، لأَنَّ اسمَ إبراهيمَ مرتبطٌ بنسلِ إسحاق، ومع أَنَّ الربَّ سيُكَثِّرُ نسْلَ ابنِه الثاني إسماعيل إلاّ أَنَّ اسْمَ إبراهيمَ محصورٌ بنسْلِ إسحاق! لماذا؟ لأَنَّ الأَحبارَ من نسْلِ إسحاق!

ونحنُ نُبَرِّئُ المذكورينَ في هذه الروايةِ المفتراةِ عن ما نُسِبَ إليهم. إننا نُؤمنُ أَن اللهَ حكيمٌ عليم، عادلٌ رحيم، لا يَظلمُ أَحَداً سبحانه، ولا يُقِرُّ ظالماً على ظلْمِه، ولا يأْمُرُ بظُلْم.

ونؤمنُ أَنَّ إبراهيمَ عليه السلام رسولٌ كريم، يُحبُّ أَولادَه، ولا يُمَيِّزُ بينهم، ولا يَنحازُ لأَحَدٍ دونَ الآخَر..

أَمَّا سارةٌ فإننا نعرفُها امرأَةً مؤمنةً صالحةً، عابدةً لله، وذاكرةً له، ونَنفي ما نَسَبَهُ الأَحبارُ لها من طلباتٍ شِرِّيرة، وأَعمالٍ ظالمة، ونفسيةٍ حاقدة!

إسماعيل وهاجر في البرية:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إبراهيمَ نَفَّذَ طلبَ سارةَ الراضي عنه الرَّبُّ، وقامَ بطردِ إسماعيلَ وأُمِّهُ إلى البرِّيَّة!

قالوا: «بَكَّرَ إبراهيمُ في الغد، وأَخَذَ خبزاً وقربةَ ماء، فأَعطاهما هاجر، ووضعَ الصبيَّ على كتفِها، وصَرَفَها!!

فمضَتْ تَهيمُ على وجهِها، وتاهَتْ في صحراءَ بئرِ السَّبْع!! .. ونَفِدَ الماءُ من القِرْبَةَ، فَطرَحَتَ الصبيَّ تحتَ إحدى الأَشجار، وجلستْ قُبالَتَه على بُعْدِ رميةِ قوسٍ، وهي تَقولُ في نفسِها: لا أُريدُ أَنْ أَرى الوَلَدَ وهو يَموت، وفيما هي جالسةٌ رفعَتْ صوتَها بالبكاء.

وسمعَ اللهُ صوتَ الصبي، فنادى ملاكُ الربِّ هاجَرَ من السماء، وقالَ لها: مالَك يا هاجَرُ؟ لا تَخافي، فإنَّ اللهَ قد سمعَ صوتَ الصبيّ، قُومي فخُذي الصبيَّ وشُدِّي عليه يَدَك، فإني جاعلُه أُمَّةً عظيمة..

وفَتَحَ اللهُ بصيرَتَها، فرأَتْ بئرَ ماء، فمضَتْ إليه وملأَت القربَة، وسَقَت

الصبي. وكان اللهُ مع الصبيّ حتى كَبُر، وأقامَ بِبَرِّيَّة فاران، واتخذَتْ له أُمُّه امرأةً من أَرضِ مصر..» [التكوين٢١-١٤-٢١].

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ هاجَرَ وإِسماعيلَ أَقاماً ببرِّيَّة فاران، وأَنه لما كَبُرَ إِسماعيلُ تزوجَ امرأةً مصريَّة، لأَنَّ أُمَّه مصريَّة.

هاجر وإِسماعيل في بلاد الحجاز:

الذي ورد في مصادرنا الإِسلامية عن إِبراهيمَ وهاجرَ وإِسماعيلَ غيرُ الذي زَعَمَهُ الأَحبارُ هنا، فقد أَخَذَ إِبراهيمُ عليه السلام إِسماعيلَ وهاجرَ من الأَرضِ المقدَّسَة إِلى مكةَ المكرمة.

روى البخاريُّ (برقم: ٣٣٦٣)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاءَ إِبراهيمُ بهاجرَ وابنِها إِسماعيل -وهي تُرضِعُه- حتى وضَعَها عند البيت، عند دَوحَة، فوقَ زمزم، في أَعلى المسجد، وليس بمكةَ يومئذٍ أَحَدٌ، وليس فيها ماءٌ.

فوضَعَها هناك، ووضعَ عندَهما جِراباً فيه تَمْر، وسِقاءً فيه ماءٌ .. ثم قَفّى إِبراهيمُ منطلقاً .. فتبعَتْه أُمُّ إِسماعيل، فقالت: يا إِبراهيمُ: أَينَ تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إِنسيٌّ ولا شيء؟

قالَتْ له ذلك مِراراً، وجَعَلَ لا يلتفتُ إِليها .. فقالَتْ له: آللهُ أَمرَكَ بهذا؟ قال: نعم، قالت: إِذنْ لا يُضَيِّعُنا .. ثم رَجَعَتْ!

فانطلقَ إبراهيم، حتى إذا كان عندَ الثَّنِيَّة، حيثُ لا يَرونَه، استقبلَ بوجْهِه البيت، ثم دعا بهؤلاءِ الكلمات، ورفعَ يديهِ فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وجعلَتْ أُمُّ إسماعيلَ تُرضِعُ إسماعيلَ وتَشربُ من ذلك الماء، حتى إذا ما نَفِدَ ما في السِّقاء عَطَشَتْ وعطشَ ابنُها، وجعلتْ تنظرُ إليه يتلوّى ..

فانطلقَتْ كراهيةَ أَنْ تَنظرَ إليه .. فوجَدت الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأَرضِ يليها، فقامَتْ عليه، ثم استَقبلت الوادي تَنظرُ، هذ تَرى أَحَداً، فلم تَرَ أَحداً، فهَبَطتْ من الصَّفا، حتى إذا بَلَغَت الوادي، رفَعَتْ طرفَ درعِها، ثم سَعَتْ سَعْيَ الإنسانِ المجهود، حتى جاوَزَت الوادي، ثم أَتَت المروة، فقامَتْ عليها، فنظرتْ هل ترى أَحَداً، فلم تَرَ أَحَداً، فعلَتْ ذلك سبعَ مرات .. فلذلك سعى الناسُ بينهما ..

فلما أَشرفَتْ على المروةِ سمِعَتْ صَوْتاً، فقالَتْ: صَهْ. تُريدُ نَفْسَها .. ثم تَسَمَّعَتْ أَيضاً .. فقالت: قد أَسمعْتَ إنْ كانَ عندك غَواث ..

فإذا هي بالمَلَك عند موضعِ زَمْزَم، فَبَحَثَ بعَقِبِه -أو بجناحِه- حتى ظهرَ الماءُ، فجعلَتْ تَحوطُه بيدِها، وجعلَتْ تَغرفُ من الماءِ في سِقائِها، وهو

يَغورُ بعدَما تَغْرِف!

قالَ ابنُ عباس: قالَ النبيُّ ﷺ: يَرحمُ اللهُ أُمَّ إسماعيل، لو تَرَكَتْ زَمْزَمَ لكانتْ زمزمُ عَيْناً مَعيناً.

فشَرِبَتْ، وأَرضعَتْ ولَدَها، فقال لها المَلَكُ: لا تَخافوا الضَّيْعَة، فإنَّ هاهنا بيتُ الله، يَبْنيه هذا الغلامُ وأَبوه، وإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَهْلَه.

فكانت كذلك، حتى مَرَّتْ بهم رُفْقَةٌ من جُرْهُم، مقبِلينَ من طريقِ كَدَاء، فنزلوا في أَسفلِ مَكَّة، فرأَوْا طائِراً عائِفاً يَحومُ حولَ الماء، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ لَيَدورُ على ماء، وعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأَرْسَلوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْن، فإذا هم بالماء، فرجَعوا فأَخبروهم بالماء.

فأَقْبَلوا وأُمُّ إسماعيلَ عند الماء، فقالوا: أَتَأْذَنين أَنْ ننزلَ عندك؟ قالتْ: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم بالماء، قالوا: نَعم.

فنَزَلوا وأَرسلوا إلى أَهليهم فَنَزلوا معهم، حتى كان بها أَهلُ أَبياتٍ منهم. وشَبَّ الغُلام، وتعلَّمَ العربيةَ منهم، وأَنْفَسَهم وأَعْجَبَهم حينَ شَبّ، فلما أَدركَ زَوَّجوه امرأَةً منهم! .. وماتَتْ أُمُّ إسماعيل..».

نعرفُ من هذه الروايةِ الصحيحةِ أَنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يَطْرُدْ هاجرَ وابْنَها تنفيذاً لرغبةِ سارة، وأَنَّ هاجرَ لم تتغربْ في صحراءِ بئرِ السبع، ولم تُزَوِّجْ إسماعيلَ امرأَةً مصرية، وأَنَّ ما قالَه الأَحبارُ بهذا الخصوصِ زَعْمٌ

وادِّعاءٌ وافتراء، كَذَبوا فيه على اللهِ وعلى إبراهيمَ، وعلى سارةَ وعلى هاجَرَ وعلى إسماعيل ..

لقد كانَ إبراهيمُ عليه السلام رسولاً، يَتَصَرَّفُ بتوجيهٍ من الله، ويُنَفِّذُ أَمْرَه، فاللهُ هو الذي أَمَرَهُ بوضْعِ هاجرَ وابنِها بوادٍ غير ذي زَرْعٍ في الحجاز، لحكمةٍ بالغةٍ يُريدُها سبحانه، حيث سيُبْنى هناك بيتُه العتيق. ولقد حفظَ اللهُ هاجَرَ وابْنَها وأَنْبَعَ لهما ماءَ زَمْزَم، وكان إيمانُ هاجَرَ باللهِ عظيماً، وتوكُّلُها عليه كبيراً، فعندما علمتْ أَنَّ اللهَ هو الذي أَمَرَ بوضعِهما في ذلك المكان، وثقَتْ به وقالت: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنا!!

وهكذا كانتْ حياةُ هاجر، ابتدأَتْ في مصر، وانتهتْ في مكة، مروراً بالأَرضِ المقدسة.

من هو الذبيح؟ إسحاق أم إسماعيل؟

خَصَّصَ الأَحبارُ الإِصحاحَ الثاني والعشرين للحديثِ عن إسحاق، الذي أَمَرَ الربُّ أَباهُ أَنْ يذبَحه.

قالوا في مزاعِمِهم: «وبعدَ هذه الأَحداثِ امتحنَ اللهُ إبراهيمَ، فقالَ له: يا إبراهيمُ. فقال: ها أَنَذا. قال: خُذْ إسحاق، ابنَك وحيدَك الذي تحبُّه، واذهبْ إلى أَرضِ موريَّة، وهناكَ أَصعِدْهُ مُحْرَقَة، على جبلٍ أَدُلُّك عليه.

فبكَّرَ إبراهيمُ في الغَد، وشَدَّ على حمارِه، وأَخَذَ معه اثنين مِن خَدَمِه،

وإسحاقَ ابْنَه، وشقّقَ حطباً، لِلْمُحْرَقَة، وسارَ إلى المكانِ الذي أَراهُ اللهُ إيّاه. فقالَ لخادِمَيْه: انْتَظِرا أنتما هنا مع الحِمار، وأَنا والصَّبِيُّ نذهبُ إلى هناك، فنسجدُ ونرجعُ إليكما..

وكَلَّمَ إسحاقُ أَباهُ قائلاً: يا أَبتِ: هذه النارُ والحَطبُ، فأينَ الحَمْلُ للمُحْرَقَة؟ فقال له: اللهُ يُدبِّرُ الخَروفَ للمُحْرَقَة! وسارا كلاهُما معاً.

فلما وَصَلا إلى المكانِ الذي أَراهُ اللهُ إياه، بنى إبراهيمُ المذْبَح، ورتَّبَ عليه الحَطَب، وربَطَ ابْنَه إسحاق، وجَعَلَه على المذبحِ فَوْقَ الحَطَب، ومَدَّ يَدَه، إلى السّكّين ليذْبَحَه..

فناداهُ مَلاكُ الرَّبِّ من السّماء، وقال له: إبراهيم، إبراهيم، قال: نعم. قال: لا تَمُدَّ يَدَكَ إلى الصَّبي، ولا تفعلْ به شَيْئاً .. الآنَ عرفْتُ أنك تَخافُ اللهَ، فما بَخِلْتَ عليَّ بابنِك وحيدِك!!

فرفعَ إبراهيمُ عينيه ونَظر، فرأى كَبْشاً عالِقاً بقرنَيْه بين الشُّجَيْرات. فأَقبلَ على الكبْشِ وأَخذَه، وقدَّمَه مُحْرَقَةً بدلِ ابنِه ..

ونادى مَلاكُ الرَّبِّ إبراهيمَ ثانيةً من السماء، وقال: يقولُ الربُّ: بنفْسي حَلَفْتُ: بما أنك فعلْتَ هذا الأمر، ولم تُمْسِكْ عنّي ابْنَك وحيدَك، لأُباركَنَّك، وأُكثِّرَنَّ نَسلكَ كنجومِ السماء، وكالرملِ الذي على شاطئ البحر، ويرثُ نَسْلُك مُدُنَ أعدائِه، ويتباركُ بنسلِك جميعُ أُممِ الأَرض..»

[التكوين٢٢: ١-١٨].

تناقض الأحبار في تحديد الذبيح:

يروي الأَحبارُ في هذه الروايةِ قصةَ الذَّبْحِ والفِداء، على طريقتِهم الخاصّة، القائمةِ على الزعمِ والادعاءِ والافتراء.

إنهم في هذه الروايةِ يقعونَ في تناقُض. فهم يَزعمونَ أَنَّ إِسحاقَ هو ابنُ إبراهيمَ الوحيد: «خذْ إِسحاقَ ابْنَك وحيدَك»!

وهم أَنفُسُهم يعتبرونَ أَنَّ إِسحاقَ ليس ابنَ إبراهيمَ الوحيد، وقد ذكروا أَنَّ ابْنَه إِسماعيلَ وِلِدَ قبلَ إِسحاقَ بأربعَ عشرةَ سنة.

قالوا في الإصحاحِ السادسِ عشر: «وَوَلَدَتْ هاجرُ لأبرامَ ابناً، فسَمَّاهُ إِسماعيل، وكان أَبْرامُ ابنَ سِتٍّ وثمانين سنة، حين وَلَدَتْ له هاجرُ إِسماعيل..» [التكوين١٦ : ١٥-١٦].

وقالوا في الإِصحاحِ الحادي والعشرين: «وختَنَ ابراهيمُ ابنَه إِسحاق، وهو ابنُ ثمانيةِ أَيّام، كما أَوصاهُ الله، وكانَ إبراهيمُ ابنَ مائةِ سنة حين وُلِدَ إِسحاق..» [التكوين٢١ : ٤-٥].

وإِذا كانَ إِسحاقُ وُلِدَ بعدَ إِسماعيلَ بأَربعَ عشرةَ سنة، فكيفَ يزعمونَ أَنه هو ابنُ إِبراهيمَ الوحيد؟ إِنَّ هذا افتراءٌ وكَذِب، يَتناقَضونَ به مع أَنفسِهم!!

إذا صحَّ كلامُ الأحبارِ أنَّ الربَّ قالَ لإبراهيم: «خُذْ ابْنَكَ وَحيدَكَ» فالمرادُ به إسماعيلُ، لأنَّ إسماعيلَ بقي ابْنَ إبراهيمَ الوحيدَ لأربعَ عشرةَ سنةً كما يقولُ الأحبارُ أنفسُهم!!

إنَّ هذا الافتراءَ والتحكُّمَ من الأحبار، يدلُّ على أنَّهم ليسوا أُمَناء، لا على الدِّين، ولا على التاريخ، وأنَّهم يَكْذِبون أوَّلاً، ثم يَجعلون كَذِبَهم تاريخاً، ثم يَجعلون ذلك جُزءاً من الدّين!!

حديث القرآن عن الذبيح:

وقد تحدَّثَ القرآنُ عن قصةِ الذبيح. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩-١١٣].

تتحدَّثُ الآياتُ عن ابنَيْن لإبراهيمَ عليه السلام: الأولُ هو الذبيح، ولم تذكُر اسْمَه، ووَصَفَتْه بأنَّه غلامٌ حليم. والثاني هو الذي وُلِدَ بعد عمليةِ الذَّبْحِ والفداءِ وهو إسحاق، وهذا معناهُ أنَّ الأوَّلَ هو الذبيح، وإذا كان الأوَّلُ هو إسماعيلَ، فإنَّ القرآنَ يكادُ يُصرِّحُ أنَّ الذبيحَ هو إسماعيل.

وقد ذكرَ القرآنُ البشارةَ بإسحاقَ بعدَ الكلامِ عن الذبيح، وهذا دليلٌ على أنَّ البشارةَ بإسحاقَ وولادتِه كانت بعدَ الذبحِ والفِداء.

تلخيص ابن كثير الموضوع:

وفيما يلي خلاصةٌ مهمةٌ لهذا الموضوعِ ذكَرَها الحافظُ ابنُ كثيرٍ في قصصِ الأنبياء: «كأَنَّ القرآنَ نَصَّ على أنَّ الذبيحَ هو إسماعيل، لأنه ذَكَرَ قصةَ الذَّبيح، ثم قال بعدَه: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

ومَنْ جَعَلَ الذبيحَ إسحاقَ فهو مخطئ، لأَنَّ هذا من الإسرائيليّات، وكتابُهم فيه تحريف، فإنَّ عندَهم أنَّ اللهَ أمرَ إبراهيمَ أنْ يَذبحَ ابنَه ووحيدَه إسحاق .. ولفظةُ إسحاقَ هاهنا مكذوبةٌ مفتراة، لأنه ليس هو البِكْرَ ولا الوحيدَ، وإنما ذاك إسماعيلُ..

وإنما حملَهم على هذا حسَدُ العَرَب، فإنَّ إسماعيلَ هو أَبو العرب .. وقد قال بأنه إسحاقُ طائفةٌ من السلفِ وغيرِهم، وإنما أَخذوهُ -واللهُ أَعلم- من كعبِ الأحبار، أَو من صحفِ أهلِ الكتاب .. وليس في ذلك

حديثٌ صحيحٌ عن المعصومِ ﷺ، حتى نتركَ لأَجلِه ظاهرَ الكتابِ العزيز. ولا يُفْهَمُ هذا من القرآن، بل المفهومُ، بل المنطوقُ بل النَّصُّ -عند التَّأَمُّل- على أنه إِسماعيل.

وما أَحسنَ ما استدلَّ به محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيّ على أنه إِسماعيلُ وليس إِسحاق، فقد استدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ فكيفَ تقعُ البشارةُ بإِسحاق، وأَنه سيولَدُ له يعقوب، ثم يُؤْمَرُ بذبحْ إِسحاقَ وهو صغير، قبلَ أَنْ يولَدَ له يَعْقوب؟ هذا لا يكون، لأَنهُ يُناقِضُ البشارةَ المتقدِّمَة، والله أَعلم!

ولما ذَكرَ ابنُ كعبٍ القرظيُّ هذا الدليلَ للخليفةِ عمرَ بن عبدِ العزيزِ قال له عمر: إِنَّ هذا الأَمْرَ ما كنتُ أَنظرُ فيه، وإِنّي لأَراهُ كما قلت!

ثم أَرسَلَ عمرُ إِلى رجلٍ كان عندَهُ بالشام، كان يهودياً فأَسلم، وحَسُنَ إِسلامُه، وكان يُرى أَنه من علمائِهم، فسأَلَه عمرُ بن عبدالعزيز: أَيُّ ابْنَيْ إِبراهيمَ أُمِرَ بذَبْحِه؟

فقال: إِسماعيلُ واللهِ يا أَميرَ المؤمنين، وإِنَّ اليهودَ لتعلمُ بذلك، ولكنَّهم يحسدونَكم معشرَ العربِ على أَنْ يكونَ أَبوكم إِسماعيل، فهم يَجْحدونَ ذلك، ويَزعمونَ أَنه إِسحاق، لأَنه أَبوهم..» [قصص الأنبياء: ١٤٦-١٤٧]

وقد صَرَّحَ القرآنُ بأنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام هما اللّذان بنيا الكعبة. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٥-١٢٩].

سيرة إِسحاق عليه السلام

تحدَّثَ الأَحبارُ في سِفْرِ التكوين حديثاً مُفَصَّلاً عن سيرةِ إِسحاقَ عليه السلام، تحدَّثوا عن زواجِه، وعن ابْنَيْه: عيسو ويعقوب، وعن ما جَرى بينهما من صِراع، وذلك على طريقتِهم في الادِّعاءِ والزعمِ والافتراء، وتقديمِ رواياتٍ ليس عليها دليل.

وصية إِبراهيم بتزويج إِسحاق عليهما السلام:

كَبُرَ إِسحاق، وأَرادَ أَبوهُ إِبراهيمُ أَنْ يُزَوِّجَه، ومعلومٌ أَنَّ إِبراهيمَ مُقيمٌ في أَرضِ كنعان، فمن أَينَ سيزوِّجُه؟

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِبراهيمَ لم يشأْ أَنْ يُزَوِّج إِسحاقَ امرأَةً كنعانية، وإِنما يزوجُه امرأَةً من عشيرتِه في العراق، وقد عهدَ إِلى كبيرِ خدمِه بهذا.

قالوا: «قالَ إِبراهيمُ لكبيرِ خَدَمِ بيتِه ووكيلِ جَميعِ أَملاكِه: ضَعْ يَدَكَ تحتَ فَخِذي، فأَستحلفُك بالربِّ إِلهِ السماءِ وإِلهِ الأَرضِ، أَنْ لا تأخذَ لابني من بناتِ الكنعانيّين، الذين أَنا مقيمٌ بينهم، بل إِلى أَرضي وعشيرتي تذهبُ وتأخذُ زوجةً لابني إِسحاق.

فقالَ له الخادم: ربَّما أَبَتِ المرأَةُ أَنْ تَتْبَعَني إِلى هذه الأَرض، فهل أَرجعُ بابنك إِلى الأَرضِ التي جئتَ منها؟

فقالَ له إبراهيم: إيّأكَ أَنْ ترجعَ بابني إلى هناك، إنَّ الربَّ إلهَ السماءِ وإلهَ الأَرض هو الذي أَخَذني من بيتِ أَبي ومن مسقطِ رأسي، وأَقسمَ لي قائلاً: لنَسلِك أُعطي هذه الأَرض، وهو يرسلُ مَلاكَهُ أمامَك، فتأخذُ زوجةً لابني من هناك، وإنْ لم تُرِد المرأةُ أَنْ تتبعَك فأَنتَ بريءٌ من قسمي هذا» [التكوين٢٤: ١-٩].

يُقَدِّمُ الأَحبارُ في هذه الروايةِ إبراهيمَ عليه السلام في صورةِ الحاقدِ على الكنعانيّين، الكارهِ لهم، بحيثُ لا يَقْبَلُ أَنْ يُزَوِّجَ ابنَه واحدةً من بناتهم، مع أَنهم أَكْرموه، وهو أَكرمَهم وتحالَفَ مع بعضِ ملوكِهم، كالملكِ صادقٍ في أُورشليمَ، والملك أَبي مالكٍ في جَرار. وهذا تناقضٌ وقعَ فيه الأَحبار.

إبراهيم رباني وليس عَشائرياً:

ثم إنَّ الأَحبارَ يجعلونَ إبراهيمَ عشائريّاً عنصريّاً، وولاءَه لعشيرتِه وقبيلتِه .. فقد غادرَ عشيرتَهُ قبلَ سنينَ عديدة، وانقطعَتْ صِلاتُه معهم، فكيفَ يعودُ للاتّصالِ بهم وتزويجِ ابنِه منهم، بعد كلِّ هذه المدةِ الطويلة؟!

وقد كان إبراهيمُ عليه السلام رجُلاً ربانيّاً، وليس عنصريّاً عشائريّاً، وكان ولاؤُه لله، وليس للعشيرة.

وقد فاصَلَ أَباهُ وقومَه، وأَعلنَ براءَتَه منهم، وأَظهر عداوتَه وبغْضَه لهم بسببِ كفرهم، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

إنَّ مَنْ يفاصلُ قومَه هذه المفاصلة، ويغادِرُهم قبلَ سنينَ عديدة، لا يَعودُ ليزوِّجَ ابْنَه واحدةً منهم .. لكنَّ الأَحبارَ في تأريخِهم لا يَنطلقونَ من العامِلِ الإِيمانيِّ، وإِنما ينطلقونَ من العاملِ العنصريِّ العشائريِّ القَبَلي. وفرقٌ بعيدٌ بين العامِلَيْن!

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ كبيرَ خَدَمِ إِبراهيمَ عليه السلام تَجَهَّزَ، وتَوجَّهَ إِلى مدينةِ «ناحور»، في بلادِ ما بين النهرين، وقابَلَ الفتاةَ «رِفْقَةَ» عندَ عينِ ماءٍ هناك، ثم تعرَّفَ على أَخيها «لابان»، وأَبوهما «بَتُوئيل»، ابنُ «مِلْكَة» ابنة «ناحور» أَخي إِبراهيم .. وبعد مداولاتٍ حَدَثَتْ بينَه وبينهم، أَخَذَ منهم رِفْقَةَ لتكون زوجةً لإِسحاق، وعادَ بِها إِلى أَرضِ كنعان .. وكانَ إِسحاقُ مقيماً في أَرضِ النَّقَب.. [التكوين٢٤: ١٠-٦٧].

وهذه الروايةُ المفصَّلَةُ لزواجِ إِسحاقَ من رِفْقَةَ نتوقَّفُ فيها لا نُصدقُها ولا نُكذِّبُها، ونَكِلُ العلمَ بها إِلى الله!

وزَعموا أَنَّ إِبراهيمَ أَعطى كلَّ ما يملكُ لإِسحاق، وجَعَلَه هو الوارث

الوحيدَ له: «وَوَهَبَ إبراهيمُ لإسحاقَ جميعَ ما يملكُه .. وأمّا بنو سَرارِيه فأعطاهُمْ عَطايا، وصرفَهم وهو بَعْدُ حَيٌّ، وأَبْعَدَهم عن ابنِه إسحاقَ إلى أَرضِ المشرق..» [التكوين٢٥: ٥-٦].

ماذا كان ميراث إبراهيم؟

إنَّهم في زَعْمِهِم يتَّهمونَ إبراهيمَ بالظُّلْم، فقد كان له ابنٌ آخرَ من هاجرَ وهو إسماعيل، وزَعَموا أنَّه تزوَّجَ امرأةً ثالثةً اسْمُها قَطُورَة، وأَنجبَ منها ستةَ أَولاد، وذَكروا أَسماءَهم [انظر التكوين٢٥: ١-٤].

فكيفَ يُعطي إبراهيمُ كلَّ ما يملكُ لواحدٍ من أبنائِه، ويَحرمُ أَبناءَه السبعةَ الآخَرين؟

وزَعْمُ الأَحبارِ إعطاءَ الميراثِ كُلِّه لإسحاقَ يَتعارضُ مع مقرراتِ الإسلام، التي تُقررُ أَنَّ الأَنبياءَ لم يتركوا ميراثاً ماديّاً. فقد روى البخاري (٦٧٣٠)، ومسلم (١٧٥٨) عن عائشةَ رضي اللهُ عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «نحنُ معاشرَ الأَنبياءِ لا نُورَثُ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَة».

الرسولُ ﷺ لا يتحدثُ عن نفسِه فقط، وإنما يتحدثُ عن جميعِ الأَنبياء، فهم لا يَتْركونَ ميراثاً ماديّاً، ولا يَجوزُ لأَبنائِهم أَو بناتِهم أَنْ يَرثوهم، فإنْ خَلَّفوا وراءَهم شيئاً من المالِ أَو الأثاثِ أَو المتاعِ أَو الأَرضِ

كان صدقةً في سبيل الله!

ولعلَّ الحكمةَ من هذا التأكيدُ على تَجَرُّدِهم لله، وزُهدِهم في الدنيا، وإيثارِهم الآخرة، وتفرغِهم للدعوةِ والنصيحة، وبعد وفاتِهم يتركون سِيَرَهم أُسوةً لمن بعْدَهم.

وزعْمُ الأَحبارِ أَنَّ إِبراهيمَ خَصَّ إِسحاقَ بالميراث يتعارضُ مع هذا الحديث الصحيح، ولهذا نرفضُ زعْمَهم ونَردُّه، ونقررُ أَنَّ كلَّ ما تَركَه إِبراهيمُ عليه السلام بعد وفاتِه جعلَه أَبناؤُه صدقةً في سبيلِ الله.

بين إِسحاق وأبي مالك ملك جرار:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِسحاقَ أَرادَ التوجُّهَ إِلى مصر، بسببِ مجاعةٍ وقعَتْ في منطقةِ النَّقَب، لكنَّ اللهَ نهاهُ عن ذلك، وأَمَرَهُ أَنْ يَبقى في منطقةِ جَرار -تقعُ جَنوبَ شرقِ غَزَّة، بينَها وبين بئرِ السبع- والْتقى هناك ملكَ جَرار أَبا مالك، الذي كان بينَه وبينَ أَبيهِ إِبراهيمَ موقفٌ مثير.

وأَعادَ إِسحاقُ مع أَبي مالك ما فعلَه أَبوهُ إِبراهيمُ معه من قبل، حيثُ قال عن امرأَتِه إِنها أُختي، خوفاً منهم، فعاتَبَهُ ملكُهم أَبو مالك!

قالوا: «وسأَلَهُ أَهلُ جَرار عن امرأَتِه، فقال: هي أُخْتي. لأَنه خافَ أَنْ يَقْتُلوه إِنْ قال: هي امرأَتي، وكانتْ جميلةَ المنظر .. ولما مضى على إِقامتِه

هناك وقتٌ طويلٌ، حدثَ أَنَّ أَبا مالكٍ ملكَ الفلسطينيين أَطَلَّ من نافذةٍ له ونَظَر، فرأى إِسحاقَ يُداعبُ رِفْقَةَ امرأَتَه!

فَدَعاه، وقالَ له: إِذاً هي امرأَتُك، فلماذا قلْتَ: إِنها أُختي؟ قال إِسحاق: لأَنّي ظننتُ أَنني ربّما أَهلكُ بسببِها! فقالَ له أَبو مالك: ماذا فعلْتَ بنا؟ لولا قليلٍ لضاجعَ أَحَدُ أَبناءِ شعبِنا امرأَتَك، فنُذنب!

وأَوصى أَبو مالكٍ جميعَ الشعبِ قائلاً: مَنْ مَسّ هذا الرجلَ وامرأَتَه فموتاً يموت..» [التكوين٢٦: ٧-١١].

وكما نَزَّهْنا إِبراهيم عليه السلام عن الكذبِ والتحايلِ والخداع، فإِننا نُنَزِّهُ إِسحاقَ عليه السلام أَيضاً عن ذلك، ولذلك نَرُدُّ هذه الحادثةَ التي نَسَبَها الأَحبارُ له، ولا نتصوَّرُ نبياً مثلَ إِسحاقَ عليه السلام يَكْذِبُ ويَقولُ عن امرأَتِه إِنها أُخْتُه لينجوَ بنفسه، ويأْخذَ المالَ والمتاعَ والأَشياء!

إِسحاق وبئر السبع وتناقض الأحبار:

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِسحاق حَفَرَ آباراً كثيرة، وزرعَ أَراضٍ خصيبة في منطقةِ جَرار، فطردَه أَبو مالك ملكُ جَرار قائلاً: «اخرجْ من عندِنا لأَنك صِرْتَ أَعظمَ منّا كثيراً» [٢٦: ١٦].

فذهبَ إِسحاقُ إِلى منطقةِ بئر السبع، وحَفَرَ فيها عدداً من الآبار، وزرعَ

الأراضي فيها، فصارَ غنيّاً قويّاً، فأتاهُ أَبو مالكٍ ملكُ جَرار وكِبارُ قادةِ جيشه، وعَقَدوا مَعَه حِلْفاً وعَهْداً أَنْ لا يُسيءَ أَحَدُهما للآخَر، وقالوا له: «الآنَ رأَيْنا أَنَّ الرَّبَّ مَعَك، فقلْنا: لِيكنْ حِلْفٌ بينَنا وبينَك، ولْنقطعْ معكَ عَهْداً أَنْ لا تُسيءَ إِلينا، بل تعامِلُنا بالحُسْنى، كما عامَلْناك وصَرَفْناك بسلام.

وبَكَّروا في الغَدِ فتحالَفوا .. وصَرَفَه إِسحاق، فمضَوْا من عندِه بسلام..» [سفر التكوين٢٦: ١-٣١].

وزعمَ الأَحبارُ أَنَّ عبيدَ إِسحاقَ حَفَروا بئْراً، فوجَدوا فيها ماء، فَسَمّاها إِسحاقُ شِبْعَةَ، فصارَ اسْمُ المدينةِ «بئر سبع» [التكوين٢٦: ٣٢-٣٣].

ولقد وَقَعَ الأَحْبارُ في تناقضٍ حولَ بئرِ السبعِ، وسببِ تسميتِها بهذا الاسم، وفي تحديدِ أَوَّلِ مَنْ سَمّاها به.

ففي الإِصحاحِ الحادي والعشرين ذَكَروا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَمّاها بئْرَ السبعِ هو إِبراهيمُ عليه السلام، حيثُ أَتاهُ ملكُ جَرارَ الكنعانيُّ أَبو مالك، وتعاهَدا عند البئرِ وتَحالَفا، وأَقْسما الأَيْمانَ، وأَعطى إِبراهيمُ أَبا مالكٍ سبعَ نَعْجاتٍ ثمناً للبئر، ولذلك سُميتْ بئرَ السبع. أَي: بئْرَ السَّبْعِ نَعْجات. [التكوين٢١: ٢٢-٣٣].

وفي هذا الإِصحاحِ السادسِ والعشرين يَزعمونَ أَنَّ ابنَه إِسحاقَ هو

الذي حَفَرها، وأنه سَمّاها «شَبْعَة»، من الحلف والقسم!

فَمَن الذي حَفَرَها في الحقيقة إِبراهيمُ أَو إِسحاق؟ ولماذا سُميتْ بئر السبع؟ وكيفَ يرضى الأَحبارُ بهذا التناقض؟

أَمّا نحنُ فإِننا نتوقَّفُ في ما يَذكرونَه من روايات، لا نُصَدِّقُها ولا نُكَذِّبُها.

ولادة عيسو ويعقوب ابني إِسحاق:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ امرأةَ إِسحاقَ كانتْ عاقراً، ولما دعا إِسحاقُ ربَّهُ رزقَها بابْنَيْن: «.. وكان إِسحاقُ ابنَ أَربعين سنة، حين اتخذَ رِفْقَةَ بنتَ بَتوئيل الأَراميِّ زوجةً له .. ثم دَعا إِسحاقُ الربَّ لأَجْلِها لأَنَّها كانت عاقراً: فاستجابَ له الرب، وحَمَلَتْ رِفْقَة، واصطدمَ الوَلَدانِ في بطنِها، فقالت: إِنْ كانَ الأَمْرُ هكذا فلماذا الحياة؟ فسأَلت الربَّ واستشارَتْه، فقال لها: في بطنِك أُمَّتان، ومِنْ أَحشائك يتفرَّعُ شَعْبان، شعبٌ يَسودُ شَعْباً، وكبيرٌ يستعبدُه صغيرٌ!

فلما كلمتْ أَيامُ ولادَتِها إِذا في بطنِها توأَمان .. فخرجَ الأَوَّلُ أَصهبَ اللون، كلُّه كَفَرْوَةِ شَعَر، فسمّوه عيسو. ثم خَرَجَ أَخوهُ ويَدُه قابضةٌ على عَقِبِ عيسو، فدُعيَ باسم يعقوب. وكانَ إِسحاقُ ابنَ ستينَ سنةً حينَ وُلِدا..

وكَبُرَ الصَّبيّان، فكان عيسو صياداً ماهراً، ورَجُلاً يحبُّ البَرِّيَّة، ويعقوبُ

رجلاً مسالماً يَلزَمُ الخيام .. فأَحَبَّ إِسحاقُ عيسو لأنَّه استطابَ صَيْدَه، أَمّا رِفْقَةُ فقد أَحَبَّتْ يعقوب..» [التكوين٢٥: ١٩-٢٨].

ملاحظات على رواية الأحبار:

ولنا على روايةِ الأَحبارِ هذه الملاحظات:

١-تحديدُهم عمرَ إِسحاقَ بأَنه كان ستينَ سنةً عندما وُلِدَ ابنُه يعقوب، مجردُ زعمٍ وادِّعاء، ليس عليه دليل.

٢-لم يَذكر الأَحبارُ شيئاً عن حياةِ إِبراهيمَ عليه السلام عند ولادةِ حفيدِهِ يعقوب، هل ماتَ قبلَ ولادتِه أَم أدركَها، وظاهرُ كلامِهم أنه ماتَ قبلَ ولادتِه.

وهذا مردود، لأَنه يتعارضُ مع القرآن، الذي أَخبرَ أَنَّ اللهَ بَشَّرَ إِبراهيمَ وسارةَ بإِسحاقَ ويعقوب، قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

أَيْ أَنَّ اللهَ سيهبُهما إِسحاقَ على كِبَر، وسيَبْقَيان على قيدِ الحياةِ حتى يَكْبَرَ إِسحاقُ ويَتزوجَ، ويولَدَ له يعقوب، وسيَريان حفيدَهما يعقوبَ وتَقَرُّ به عيناهُما، وعلى هذا قوله تعالى أَيضاً: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

ومعنى كونِ يعقوبَ نافلة، أنه زائدٌ على البشارة، لأَنَّ النافلةَ في اللغةِ هي الزيادة، فاللهُ وَهَبَ لإِبراهيمَ وسارةَ إسحاق، وأَكرمَهما بأَنْ وهبَ لهما يعقوب، أَي سيَرَيان حفيدَهما يعقوب .. وهذا المعنى لم يذكُرْه الأَحبار!

٣-زَعَموا أَنَّ امرأةَ إسحاق كانت حاملةً بتوأم، وصَوّروا ولادتَها تصويراً مضْحِكاً، حيثُ نَزَلَ الأَولُ، وجسمُه أَحمرُ مكسُوٌّ بالشَّعَر، وكأَنه فَروة، فسمّوه «عيسو»، أي: الأَحْمَرُ كثيفُ الشَّعَر .. ونزلَ أَخوه خلْفَه، وهو ممسكٌ بعقِبِه، يشدُّ بيدِه على رجْلِ أَخيه، فسمّوه «يعقوب» المشتقّ من العَقِب..

ومَنْ أَدرى الأَحبارَ أَنَّهما وُلِدا على هذه الطريقةِ المضحكة؟ وكيفَ يخرجُ المولودُ من بطنِ أمه ممسكاً بعَقِبِ أَخيه؟

٤-زَعَموا أَنَّ إسحاقَ كان يحبُّ عيسو، بينما كانت امرأَتُه تحبُّ يعقوب، وهذا اتهامٌ لهما بالمحاباةِ بين الأَبناء، مما يولِّدُ الكراهيةَ والبغضاءَ بينهم! وإننا نُنَزِّهَ نبيَّ اللهِ إسحاقَ عليه السلام عن ارتكابِ هذا الظلم، لأَنَّ الله أَوجبَ على المؤمنين العدلَ والمساواةَ بين الأَبناء.

يعقوب يخدع أخاه عيسو!

زَعَمَ الأَحبارُ أَن عيسو هو بكرُ إسحاق، لأَنَّه نزلَ أَوّلاً، ونزلَ أَخوه

يعقوبُ ممسِكاً بعقِبِه، والوراثةُ في العرفِ الإسرائيليِّ للابنِ البِكْر، حيثُ يَرِثُ الابنُ البكرُ أباه في البَرَكَةِ والدِّينِ والتفضيلِ عند الله.

والأَصْلُ أَنْ تكونَ البركَةُ لعيسو البِكْر، ولكنَّ البركةَ انتقلَتْ ليعقوبَ، حيثُ مَكَرَ بأخيه، واشترى البُكوريَّةَ والبركَةَ منه. قال الأَحبار: «وطَبَخَ يعقوبُ طبيخاً، فعادَ عيسو من الحَقْلِ، وهو خائِرٌ من الجوع، وقال ليعقوب: أَطْعِمْني من هذا الإِدامِ، لأَني خائرٌ من الجوع، ولذلك قيلَ له: أَدوم.

فقال له يعقوب: بِعْني اليومَ بُكوريَّتَك! فقالَ عيسو: أَنا صائِرٌ إلى الموتِ إِنْ لم آكُل، فمالي والبكوريَّة؟ فقالَ له يعقوب: احْلِفْ لي. فَحَلَفَ عيسو له، وباعَه بكوريَّتَه! فأَعطاهُ يَعقوبُ خُبْزاً وطَبيخاً من العَدَس..» [التكوين٢٥ : ٢٩-٣٤].

وهكذا باعَ عيسو بُكوريَّتَه وبَرَكَتَه بطبخةِ «عَدَس»، كما زعَمَ الأَحْبار! ولم يَعلمْ أَبوهما إِسحاقُ بما جرى بينهما، وظنَّ أَنَّ البركَةَ ما زالَتْ في بِكْرِه عيسو، وتعامَلَ معه على هذا الأَساس.

يعقوب يخدع أباه ويكذب عليه!

وتآمَرَ يعقوبُ مع أُمِّه ضدَّ أَخيهِ عِيسُو، وكَذَبَ يعقوبُ على أَبيه إِسحاقَ وخَدَعَه، وأَخَذَ منه البَرَكَة..

وخَصَّصَ الأَحبارُ الإصحاحَ السابعَ والعشرين للحديثِ عن كذبِ يعقوبَ وخِداعِه وتَحايُلِه، وذَكروا روايةً مفصلةً لذلك.

لقد صَوَّرَ الأَحبارُ المفترونَ أُسرةَ إِسحاقَ متفككةً، منقسمةً إلى حزبَيْن: إِسحاقُ وابنُه عيسو في جهة، وامرأَتُه رِفقة وابنُها يعقوبُ في جهةٍ أُخرى.

وزَعمَ الأَحبارُ أنه لما شاخَ إِسحاقُ ودنا أَجَلُه استدعى بكْرَهُ عيسو، وكَلَّمه سِرّاً، وطلبَ منه أَنْ يصطادَ له صَيْداً ويُجهزَه، ليأكُلَه ويُبارِكَه!

وخَرَجَ عيسو إلى البرِيَّةِ ليُحضرَ ما طَلَبه منه أَبوه.

وكانت رِفْقَةُ «تَتَسَمَّعُ» وعرفَتْ أَنَّ ابْنَها عيسو سينالُ بركةَ أَبيه، وهي تُريدُها لابنِها وحبيبِها يعقوب .. ولذلك أَسرعَتْ إلى يعقوبَ وطلبَتْ منه أَنْ يختارَ جَدْيَيْنِ من خيرةِ المعز، وأَنْ يذبَحَهما ويَشويَهما، ويُقَدِّمَهما طعاماً لأَبيه لينالَ بركَتَه. وكان إِسحاقُ -على حسبِ مزاعمِ الأَحبار- أعمى، ونَصحت الأُمُّ أَنْ يُقدمَ يعقوبُ نفسَه إلى أَبيه الأَعمى على أَنه عيسو، وأَنه أَحضَرَ الصيدَ المشويَّ الذي طلَبَه منه!

فخافَ يعقوبُ أَنْ يفعلَ ذلك لأَنه رجُلٌ أَملَس، وأَخوه عيسو رجلٌ كثيفُ الشَّعَر، فكيفَ إذا لَمَسَه أَبوه الأَعمى ووجَدَه أَمْلَس، إنه لنْ يُبارِكَه، وإنما يلعنُه .. فطمأَنَتْه أُمُّه المتآمرةُ بأَنَّ لعنَتَه عليها هي، تتحملُها.

ورسَمَتْ رِفْقَةُ ليعقوبَ الخُطَّة، فأَلبسَتْه ثيابَ عيسو، وكَسَتْ عُنُقَه

ويدَيْه بجِلْدِ المعز، حتّى إذا مَسَّه أبوه وَجَدَه كثيفَ الشَّعَر! وأَعَدَّت الطعامَ الذي يُحبُّه إِسحاق!!

وحملَ يعقوبُ الطعامَ واللحمَ المشويّ، ودخلَ على أَبيه الأَعمى، وقال له: يا أَبتِ! فقالَ أَبوه: مَنْ أَنتَ يا بُنَيّ؟

فأَجابَ يَعقوب: أَنا بِكْرُك عيسو، صنعْتُ لك ما أَمَرْتَني، قُمْ وكُلْ من صَيْدي لتبارِكَني!

فقالَ له: ما أَسرعَ ما وجَدْتَ الصَّيْدَ يا بُنَيّ! فقالَ له: إِنَّ الربَّ إِلهَك قد وَفَّقَني ويَسَّرَ ذلك لي!!

وتَقَدَّمَ يعقوبُ إِلى أَبيه وجَسَّه بيدِه، وشَكَّ إِسحاقُ فيه، وقال: الصوتُ صوتُ يعقوب. لكنَّ اليدَين يَدا عيسو!

وأَرادَ إِسحاقُ أَنْ يتأَكَّدَ ويُزيلَ شَكَّه، فقال له: هل أَنتَ ابْني عيسو؟ قال: نعم، أَنا هو!!

فقالَ له: قَدِّمْ لي يا بُنَيَّ صَيْدَكَ لآكُلَه وتُباركَكَ نفسي!

فقدَّمَ له اللحمَ المشويَّ فأَكلَ، وأَتاهُ بعد ذلك بالخمرِ فشَرب!!

ثم قال له: تَقَدَّمْ يا بُنَيَّ وقَبِّلْني. فتقَدَّمَ يعقوبُ وقَبَّلَه، وشَمَّ إِسحاقُ منه رائحةَ ثيابِه التي يَعرفُها، لأَنَّ يعقوبَ المخادعَ كانَ يلبسُ ثيابَ عيسو.

عند ذلك باركَ إسحاقُ ابْنَه أمامَه على أنه عيسو. وقال في مباركتِه له: رائحةُ ابني كرائحةِ حَقْلٍ باركَه الرَّبّ. يُعطيكَ اللهُ من ندى السَّماء، ومن خصوبَةِ الأَرض، فَيْضاً من الحنطةِ والخَمر، وتَخدمُكَ الشعوب، وتَسجدُ لك الأُمَم، سيداً تكونُ لإِخواتِك، وبَنو أُمِّك يسجدونَ لك .. ملعونٌ مَنْ يلعَنُك، ومُباركٌ مَنْ يُبارِكُك!!

ولما انتهى إسحاقُ من التبريكِ قامَ يعقوبُ فَرِحاً مسروراً، لأَنَّه تمكَّنَ من خداع أَبيه، وأَخْذِ البركةِ منه!!

بين عيسو وأبيه:

وأَقبلَ عيسو بصَيْدِهِ الذي طلَبَه أَبوهُ منه، وهيَّأَهُ له كما يحبُّه، ودَعاهُ إلى أَنْ يأكلَ منه.

فقالَ له: مَنْ أَنت؟

قال: أَنا ابْنُك البكْرُ عيسُو!!

فارتعشَ إسحاقُ ارتعاشاً شديداً جِدّاً، وقال: فَمَن الذي قَدَّمَ لي الصيدَ وأَطْعَمني منه؟!

عند ذلك عَرَفَ إسحاقُ أَنَّ ابْنَه يعقوبَ قد خَدَعَه وكَذَبَ عليه! لكنه باركَه، ولا مجالَ للعودةِ عن هذه البركة.

لذلك قال للمسكينِ عيسو: لقد باركْتُه!!

فصرخَ عيسو صرخَةً عظيمة، بمرارة، وقال: بارِكْني أنا الآنَ يا أَبي!

فردَّ عليه قائلاً: لقد جاءَ أَخوكَ بمكْرٍ، وأَخَذَ بركَتَك!!

فقالَ عيسو: أَلأَنَّ اسْمَه يعقوبُ قد تَعَقَّبَني مرتَيْن. أَخَذَ بِكْرِيَّتي، وها هو الآن يأخذُ بَرَكَتي؟ أما بقيْت لي بَرَكَة؟

فقالَ أَبوه: لقد جعلْتُه سيِّداً لك، وأَعطيتُه جميعَ إِخوتِه عَبيداً، وزَوَّدْتُه بالحنطةِ والخمر، فماذا أَعملُ لك يا ابني؟

فقالَ له: أَما لَكَ غير بَرَكَةٍ واحدةٍ يا أَبي؟ بارِكْني أَنا أَيضاً يا أَبي!

بقيَ إِسحاقُ صامِتاً! ورفعَ عيسو صَوْتَه بالبكاءِ!

فقالَ له أَبوه: بعيداً عن خُصوبةِ الأَرضِ يكونُ مسكَنُك، وبَعيداً عن ندى السماء، بسيفِكَ تَعيش، وأَخاكَ تَخْدِم، فإِذا قَويتَ تكسِرُ نيرَهُ عن عنقِك!

وحَقَدَ عيسو على أَخيه يعقوبَ بسببِ ذلك، وصَمَّمَ على قتْلِه!!

وعلمتْ أُمُّه رِفْقَةُ بذلك، فنصحَتْ يعقوبَ بالهَرَب، وقالَتْ له: أَخوك يَنوي أَنْ يقتُلَك، فاهربْ إِلى لابانَ أَخي في حاران، وأَقِمْ عنده أَياماً قليلة، حتى يزولَ غضبُ أَخيك فأَستَدْعيك.. [التكوين٢٧: ١-٤٥].

تساؤلات حول رواية الأَحبار:

إِنها رواية مثيرة سجَّلها الأَحبارُ المفترون، ولا يُمكنُ أَنْ تَصدرَ أَحداثُها المثيرةُ عن مسلمين عاديّين، فكيف تصدرُ عن أَنبياءَ مثلِ إِسحاقَ ويعقوبَ عليهما السلام.

كيفَ يُجيزُ يعقوبُ عليه السلام لنفسِه أنْ يَخدعَ أخاه ويتآمَرَ عليه؟ وكيفَ يتفقُ مع أُمِّه ليخدعَ أباه؟ وكيفَ يدخلُ على أبيه لابساً جِلْدَ معزٍ ليوهِمَه ويخدعَه؟ وكيف يَكذبُ عليه عدةَ مراتٍ كَذِباً صريحاً؟ وكيفَ يُخْدَعُ إسحاقُ بهذه الصورة؟ ومَنْ قالَ للأحبارِ المفتَرين أنه أُصيبَ بالعمى؟ وكيفَ يكونُ على هذه الصورةِ من السذاجة؟ بحيثُ لا يُمَيِّزُ بين ابنَيْه؟ ولماذا لم يُخبِرْهُ الربُّ بكذبِ ابنِه يعقوب؟ أليس هو نبيّاً يخبرُه اللهُ ويوجِّهُه؟

وما هذه البركةُ التي يمنحُها الربُّ لمن يَكذبُ ويَتحايلُ ويُخادع؟ ولماذا يُحْرَمُ عيسو المسكينُ المخدوعُ منها بدونِ ذنبٍ ارتكبه؟ وما المانعُ من أنْ يُبارَكَ هو أيضاً؟ ولماذا كلُّ الشعوبِ تَخدمُ نسلَ يعقوبَ الذي نالَ البركةَ بهذه الطريقةِ الشيطانية؟ ولماذا نَسْلُ عيسو يكونون خَدَماً لنَسْلِ يعقوب؟ وما هو ذنبُهم الذي استَحَقّوا به هذه العبودية؟ ثم كيفَ يُطعِمُ يعقوبُ المخادعُ أباهُ إسحاقَ اللحمَ المشويَّ، ثم يَسقيهِ بعد ذلك الخَمْرَ؟ وكيفَ النبيُّ يَسقي أباهُ النبيَّ الخمر؟ وكيف يَشربُ أبوه النبيُّ الخمرَ؟

نَشهدُ أَنَّ الأَحبارَ كاذبون مفترونَ في هذه الروايةِ المفتراة، التي لا تَصْدُرُ إلاّ عن أُناس، تجرَّدوا من الخُلُق والدين .. ونَشهدُ أَنَّ يَعقوبَ عليه السلام نبيٌّ كريم، مُبَرَّأٌ مما يقولون، ومُنَزَّهٌ عن الكذبِ والغشِّ والخداعِ والتحايُل، وأَنَّ إسحاقَ عليه السلام نبيٌّ كريم، لم يُخْدَعْ ولم يَشربِ الخمر!!

سيرة يعقوب عليه السلام

خَصَّصَ الأَحبارُ الإِصحاحَ الثامنَ والعشرين للحديثِ عن ما جَرى ليعقوبَ في الطريق، أثناءَ توجُّهِه من أَرضِ كنعانَ إِلى حَرّان في بلادِ ما بينَ النهرَيْن، حيثُ خالُه لابان.

فقد نصَحَتْه أُمُّه بالذهابِ إِلى خاله، لأَنَّ أَخاهُ عيسو يريدُ قتْلَه، بسببِ ما فعلَه به، وزَعَموا أَنَّ أَباهُ إِسحاقَ أَوصاهُ قبلَ سفره بوصيةٍ عجيبة.

قالوا: «أَوصى إِسحاقُ ابنَه يعقوبَ قائلاً: لا تَأْخذ امرأَةً من بناتِ كنعان. قم اذهبْ شَمالاً إِلى سهلِ آرام، إِلى بيتِ بَتُوئيل أَبي أُمِّك، وتزوَّجْ بامرأَةٍ من هناك، من بناتِ لابانَ أَخي أُمِّك .. واللهُ القديرُ سيباركُك ويُنْمِيك ويُكَثِّرُك، وتكونُ منك عِدةُ شعوب، ويُعطيكَ بركةَ إِبراهيم، لكَ ولنسْلِك من بَعْدِك، لترثَ أَرضَ غُرْبَتِك التي وهَبَها اللهُ لإِبراهيم..» [التكوين٢٨: ١-٤].

ويُلاحَظُ أَنَّ إِسحاقَ أَوصى ابْنَه بنفسِ وصيةِ أَبيه إِبراهيمَ له -حسبَ مزاعمِ الأَحبار- فقد زَعَموا أَنَّ إِبراهيمَ نهى عن تزويجِ إِسحاقَ من بناتِ كنعان، وأَحضَرَ له امرأَةً من عشيرتِه في حَرّان، وهاهم يَزْعمونَ أَنَّ إِسحاقَ يَسيرُ على خطى أَبيه، فينهى ابنَه عن الزواجِ من بناتِ كنعان! فلماذا هذا التركيزُ على هذه النظرة؟ وهل بَناتُ حَرّان مؤمناتٌ بالله؟

وزَعموا أَنَّ عيسو تزوجَ امرأتَيْن من بناتِ كنعان، فنالَ بذلك غضبَ أَبيه وأُمِّه، وحاوَل إرضاءَهما فتزوَّجَ ابنةَ عَمِّه إسماعيل!

إنَّ الأَحبارَ حريصون على العاملِ العشائريّ القَبَليِّ العنصُريِّ في الروايةِ والسَّرْدِ والتاريخ، وعلى استبعادِ العاملِ الإيماني، فبَناتُ كنعانَ لا يَصلُحْنَ زوجاتٍ لأَبناءِ إبراهيم، لأَنهنَّ كَنعانيّات، سواءٌ كُنَّ مؤمناتٍ أَو كافرات، وبناتُ ناحورَ يصلحْنَ زوجاتٍ لهم، لأَنَّهنّ قريباتٌ لهم ومن عشيرتِهم، سواءٌ كُنَّ مؤمناتٍ أَو كافرات!!

حلم يعقوب والتعهد له في بيت إيل:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ غادَرَ أَباه في بئرِ السبع، متوجِّهاً إلى دارِ خالِه في حَرّان، وفي الطريق تجلّى له الربُّ في المنام، وتعهَّدَ له بإعطائِه الأَرضَ المقَدَّسَةَ، وجعْلِها في نَسْلِه إلى الأَبد..

قالَ الأَحبار: «خرجَ يعقوبُ من بئرِ سَبْع، وذهبَ إلى حاران، فوصلَ عندَ غيابِ الشمس إلى موضع، رأى أَنْ يَبيتَ فيه، فأَخذَ حَجَراً من حجارةِ الموضع، ووضَعَه تحتَ رأْسِه، ونام..

فحلَمَ أَنه رأى سُلَّماً منصوبةً على الأَرض، ورأَسُها إلى السماء، وملائكةُ اللهِ تَصعدَ وتَنزلُ إليها، واللهُ واقفٌ على السُّلَّمِ بالقربِ من يعقوب.

فقالَ له: أَنا الربُّ إِلهُ إبراهيمَ أَبيك وإِلهُ إسحاق، إنَّ الأَرْضَ التي أَنتَ نائمٌ عليها أَهَبُها لكَ ولنَسْلِكَ إِلى الأَبد، وسيَكْثُرُ نسلُك كترابِ الأَرض، ويَنتشرُ شَرقاً وغَرباً وشَمالاً وجَنوباً، ويَتباركُ بك وبنسْلِك جميعُ قبائلِ الأَرض، وها أنا معك، أَحفظُك حيثُما اتَّجهت، وسأَرُدُّكَ إِلى هذه الأَرض، ولا أَتخلّى عنك، وسأَفي لك بكلِّ ما وعدْتُك!

فأَفاقَ يعقوبُ من نومِه، وقال: الربُّ في هذا المكان وأَنا لا أَعلم! وبَكَّرَ في الغَد، وأَخَذَ الحجر الذي وَضَعَهُ تحتَ رأسِه، ونَصَبَهُ عَموداً، وصَبَّ عليه زيتاً ليُكَرِّسَه للربّ، وسَمّى ذلك الموضع «بيت إيل»، وكانت المدينةُ من قبلُ تُسَمّى «لوز»» [التكوين٢٨: ١-١٩].

«لوز»: مدينةٌ كنعانية، على الطريقِ بينَ القدسِ ونابلس، وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ مَرَّ بها في طريقهِ إِلى حَرّان، ورأى اللهَ في المنام، وتعهَّدَ بأَرضِ الميعادِ له، ولأَولادِه ونسلِه، وفي الصباحِ أَخَذَ الحجرَ الذي كان تحتَ رأْسِه، ونَصَبَه عموداً ليرمزَ إِلى وجودِ الربِّ في هذا المكان، وسَمّى المكانَ «بيتَ إِيل».

قالَ عنه واضعو قاموس الكتاب المقدس: «بيت إيل: اسْمٌ عبري، معناه: بيتُ الله. وأَولُ ما قَدِمَ إبراهيمُ أَرضَ الميعادِ نصبَ خيمتَه في الأَراضي المرتفعة، قربَ بيتِ إيل .. ثم لما سافرَ يعقوبُ إِلى ما بينَ النهريْن

هارباً من وجهِ أَخيه عيسو، باتَ في مكانٍ قربَ مدينةِ لوز .. ورأى هُناك رؤياه العظيمة، فَدَعا اسْمَ المدينةِ بيتَ إِيل، لأَنَّ اللهَ ظَهرَ له فيها في تلك الليلة، أَما موقعُ المدينةِ فإلى شرقيِّ خَطٍّ يمتدُّ من أُورشَليم إِلى نابلس، على بُعْدٍ واحدٍ من كلتَي المدينتين، وكانتْ سابقاً محلَّ إِقامة ملوكِ الكنعانيين»

[قاموس الكتاب المقدس: ٢٠٠].

هدف الأَحبار من ذكر الحلم المدَّعى:

هَدَفُ الأَحبارِ من ذكرِ هذه الرؤيا، التأكيدُ على أَنَّ الربَّ أَعطى هذه الأَرضَ ليعقوبَ ونسلِه مُلْكاً أَبَدِيّاً، وهذا الزعمُ لا يملّونَ من ذكْرِه والتأكيدِ عليه، في كلِّ موضعٍ يرونَه مناسِباً في أَسفارِ العهدِ القديم!

ومما يدلُّ على أَنَّه زعْمٌ من مزاعمِ الأَحبارِ العديدةِ، ادِّعاؤُهم أَنَّ اللهَ تجلّى له ورآهُ في المنام. وأَنَّ اللهَ وَقَفَ على السُّلَّم بجانِبه، فنظرَ له يعقوبُ ورآهُ، وسمعَ كلامَه وهو يتعهَّدُ له بأَرضِ الميعاد.

وهذا الزعمُ اليهوديُّ يتعارضُ مع ما يجبُ لله من تعظيمٍ وتكريمٍ وإِجلال، فالله لا يمكنُ أَنْ يُرى في هذه الدنيا، لا يَقظةً ولا مَناماً، لأَنه يَتَعالى على التجسيمِ والتحديدِ والتشبُّهِ بالبَشَر، والمؤمنون يرونَ ربَّهم يومَ القيامة في الجنة، لكنَّ الأَحبارَ لا يُقَدِّرونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه، ولذلك يَصفونَه بصفاتِ البَشَر، ويَدَّعون أَنه يُرى في اليقظةِ وفي المنام، لأَنه يتجلّى في صورةِ البشر.

وقد اعترفَ الأَحبارُ في تعليقِهم على هذه الرؤيا بأَنَّ الأَحبارَ أَخَذوها من البابليّين والعراقيّين أثناءَ فترةِ السَّبْي: «إنَّ حُلُمَ السُّلَّمِ المؤدّي إِلى السماءِ فكرةٌ من بلادِ ما بينَ النهرَيْن، تَرْمُزُ إِليها الأَبراجُ ذاتُ الطوابق..» [العهد القديم: ١١٠، حاشية: ٢].

كما اعترفَ الرهبانُ بأَنَّ يعقوبَ تَأَثَّرَ بالديانةِ الكنعانية، عندما جَعَلَ الحجرَ نُصُباً وصَبَّ عليه زيتاً وسَمَّاهُ بيل إِيل. فقالوا: «يُحَدِّدُ الحَجَرُ مكانَ الحضورِ الإِلهي، فيصبحُ «بيت إِيل»، أَيْ: بيتُ الله، ويُمسحُ بالزيت، لكنَّ هذه الشعائرَ موجودةٌ في الدينِ الكنعاني، وفي البيئةِ الساميَّةِ كلِّها، وسيستنكرُها الأَنبياءُ فيما بعد» [العهد القديم: ١١١، حاشية: ٣].

يعقوب عند خاله لابان:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنه لما وَصَلَ يعقوبُ إِلى أَرضِ حرّان، توقَّفَ عند بئرِ ماءٍ، وَجَدَ حَولَها الغنمَ والرعاة، وسأَلهم عن لابانَ بنِ ناحور، فأَخْبَروه أَنَّ ابنَتَه راحيلَ قادمةٌ، ومعها الغنمُ لتَسقيها من البئر .. قالوا: «وبينما هو يُجادِلُهم، جاءتْ راحيلُ مع غَنَم لابانَ أَبيها، لأَنها كانَتْ راعية، فلما رآها يَعقوبُ تَقَدَّمَ ودحرجَ الحجرَ عن فِمِ البئرِ وسَقى الغنم .. وقَبَّلَ يعقوبُ راحيل، ورفعَ صوتَه وبكى .. وأَخبَرَها أَنه ابنُ أُخْتِ رِفْقة، وركضَتْ فأَخْبَرَتْ أَباها، فجاءَه لابانُ مسرِعاً، وعانَقَه وقَبَّلَه، وأَخذَه إِلى بيته ..

وأَخبرَه يعقوبُ بكلٍّ ما جرى له: فقالَ له لابانُ: أَنت حَقّاً من لَحْمي وعَظْمي..» [التكوين٢٩: ١-١٤].

ونحنُ نتوقَّفُ في قَبولِ هذه الرواية، فلا نُصَدِّقُها ولا نُكَذِّبُها، ونَضيفُها إِلى العديدِ من رواياتِ الأَحبارِ، التي لا دَليلَ لهم عليها.

وإِنَّ زَعْمَهم أَنَّ يعقوبَ لما رأى ابنةَ خالِه راحيلَ مع الغنمِ قَبَّلَها، ورفعَ صوتَه وبكى شوقاً إِليها، زَعْمٌ مردودٌ، لأَنه لا يتَفقُ مع نُبوةِ يعقوبَ عليه السلام، وحُسْنِ خُلُقِه وأَدَبِه، فكيفَ يرى فتاةً أَجنبيةً ليست محرَّمَةً عليه، فَيُقَبِّلُها؟ وبأَيِّ صفةٍ يُقَبِّلُها؟ ومَنْ أَجازَ له أَنْ يُقَبِّلَها؟ إِنَّ هذا التصرفَ لا يُقْدِمُ عليه مسلمٌ عاديٌّ، فكيفَ يُقْدِمُ عليه نبيٌّ؟

لابان يخدع يعقوب:

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ لابانَ طلبَ من يعقوبَ أَنْ يَخْدِمَه مُقابلَ أُجرةٍ يُحَدِّدُها، فوافقَ يَعقوبُ على أَنْ يَخدِمَه سبعَ سنين، مقابلَ زواجِه من ابنتِه الصغرى راحيلَ، التي قَبَّلَها عند بئرِ الماء.

وزَعَموا أَنه كان للابانَ ابنتان: الكُبرى لَيْئَة، والصُّغرى راحيل، وكانتْ حسنةَ الهيئَةِ، جميلةَ المنظر.

وخَدَمَ يَعقوبُ خالَه سبعَ سنوات، وكانتْ في عينيه كأَيامٍ قليلةٍ، من

محبَّتِه لراحيل، ولما انتهت السنواتُ السبْعُ قالَ له: أَعْطِني امرأتي راحيلَ لأَدْخُلَ عليها.

فَخَدَعَ لابانُ يعقوبَ وكَذَبَ عليه، حيثُ جَهَّزَ له البنتَ الكبرى لَيْئَة، وأَدخلَها عليه ليلاً! ودَخَلَ بها وهو يَظُنُّ أنها راحيل، وفي الصباحِ وَجَدَ أنها لَيْئَة!! فغضبَ غضباً شديداً، وقالَ لخالِه: ماذا فعلْتَ بي؟ أَما خَدَمْتُك لآخذَ راحيل؟ فلماذا خَدَعْتَني؟ .. فقالَ له: في بلادِنا لا تَتَزَوَّجُ الصغرى قبلَ الكبرى، أَكْمِلْ أُسبوعَ زواجِك من لَيْئَة، وأُعطيك راحيلَ زوجةً أُخرى، مقابلَ سبعِ سنوات أُخرى من الخدمةِ عندي .. فخَدَمَهُ سَبْعَ سنواتِ أُخرى، وأَعطاهُ راحيلَ زوجةً ثانيةً له. [التكوين٢٩: ١٥-٣٠].

التحايل والخداع بين الأقارب:

إنَّ المجتمعَ الذي يتحدَّثُ عنه الأَحبارُ مجتمعٌ مُتَحايل، والصلةُ بين أَفرادِه تَقومُ على الكذبِ والخِداع، حتى لو كانوا أَنبياء، فقد مَرَّ مَعَنا كيفَ فعلَ يعقوبُ من الكذبِ والتحايلِ والخداعِ ضدَّ أَبيه وأَخيه، وها هو يَدفعُ ثَمنَ ذلك الخداع!

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ خالَه لابانَ كَذَبَ عليه وخَدَعَه، فلما طلبَ الزواجَ من ابنتِه الصغرى الجميلةِ راحيل، مقابلَ سبعِ سنواتٍ من الخدمةِ، أَظهرَ له الموافقة، وكان يُخفي في نَفسِه شيئاً آخَر، حيثُ جَهَّزَ له البنتَ الكبرى لَيْئَة.

ولم يُفَرِّقْ يَعقوبُ بين الأُخْتَين، فظنَّ أَنَّ التي يُضاجِعُها هي التي خَطَبَها، وفي الصباحِ عَرَفَ أَنه خُدِعَ، بعد أَنْ حَصَلَ ما حَصَل.

عند ذلك أَظهرَ له خالُه حقيقةَ ما في نفسِه، فمن غيرِ المقبولِ عندهم تزويجُ الصُّغرى قبلَ الكُبرى، فإِنْ أَرادَ الصُّغرى حبيبتَه فلْيخدم سبعَ سنواتٍ أُخرى! فاضطرَّ يَعقوبُ إِلى الموافقةِ، مَغْلوباً على أَمْرِه!

من غيرِ المقبولِ أَنْ تكونَ الصلةُ بين الأَقارب قائِمةً على هذه الأَخلاقِ القبيحةِ السيئة، حيثُ اللؤمُ والكيد، والكذبُ والخداع، والتحايلُ والخبث!

ثم مَنْ أَدْراهم بهذه التفاصيلِ بين يعقوبَ وخالِه؟ وما هو دَليلُهم على ذلك؟ لا نجدُ لهم دليلاً مُعْتَمداً على ذلك ..

وقد نَسَبَ الأَحبارُ ليعقوبَ الجمعَ بين الأُخْتَيْن باعتبارِهما زوجتَيْن: لَيْئَة وراحيل، ونعلمُ أَنَّ الجمعَ بين الأُخْتَيْن في الزواجِ حرام، لا يُقْدِمُ عليه مسلمٌ عاديّ، فكيفَ فَعَلَه النبيُّ يعقوبُ؟

يعقوب يخدع خاله ويسرقه:

رَدَّ يعقوبُ على خداعِ خالِه بخداعٍ مثلِه، وبذلك أَخَذَ بثأْرِه منه، وزادَ على ذلك بأَنْ سَرَقَه، وهَرَبَ بالمسروقاتِ عائداً إِلى أَرضِ كنعان، وباركَ

الربُّ خِداعَ يعقوبَ وسرقتَه، فطلبَ من خالِه أَنْ يُبارِكَه ويُكْرِمَه ولا يؤذيه.

زَعَمَ الأَحبارُ أَنه بعدما خَدَمَ يَعقوبُ خالَه حوالي عشرين سنة، وتَزَوَّجَ ابنَتَيْه، وأَنجبَ منهما اثْنَيْ عَشَرَ مولوداً، أَرادَ أَنْ يَعودَ إِلى أَبيه في أَرضِ كنعان، واتفقَ معه على أَنْ يأْخُذَ أُجرتَه منه غَنَماً، مقابلَ سنواتِ خدمتِه.

وجاءَتْ فرصةُ ثَأْرِ يعقوبَ من خالِه، وانتقامِه منه، فتَحايَلَ عليهِ حيلةً، في غايةِ المكرِ والخُبثِ والدَّهاء.

من المعلومِ أَنَّ غنمَ الضأنِ لونُه أَبيضُ عموماً، وقلَّ أَنْ تكونَ الشياهُ من الضأْنِ سوداءَ اللون، بينما لونُ غَنَمِ المعْزِ أَسمرُ عموماً، وقلَّ أَنْ تكونَ العَنْزُ بيضاءَ اللون!

فأَظهرَ يَعقوبُ للابانَ أَنه سيأْخُذُ أَجرتَه عدداً قليلاً من الغنمِ، سيأْخُذُ الضأْنَ التي لونُها أَسود، والمعْزَ التي لونُها أَبيض، وهذه قليلةٌ في غنمه، فوافق لابانُ على ذلك ظاناً أَنه قد عقدَ مع يعقوبَ صفقةً رابحة، وما درى المسكينُ أَنَّ يعقوبَ سيخدعُه ويَتَحايَلُ عليه!

خرافة حول وحام الغنم:

ذكرَ الأَحبارُ خرافةً من الأَساطير، تحايَلَ بها يعقوبُ على خالِه، فَزَعموا أَنه لما حانَ وقْتُ جِماعِ المعْزِ من الغنَمِ وَضعَ أَمامَها عِصِيًّا بيضاءَ اللون، ولما

رأَتْها إناثُ المعْزِ «تَوَحَّمَتْ» عليها، فولدتْ مواليدَ بيضاءَ اللون..

ولما حانَ وقتُ جماعِ الضأنِ من الغنمِ أوقفَها أَمامَ المعزِ السُّود، ولما رأَتْها «تَوَحَّمَتْ» عليها، فولَدَتْ مواليدَها سوداءَ اللون!! وبهذه الحيلةِ العجيبةِ انتقمَ يعقوبُ من خاله، وأَخذ بثأْرِه منه، وأَخَذَ كلَّ الضأنِ ذاتِ اللونِ الأَسود وهي كثيرة، والمعْزِ ذاتِ اللَّوْنِ الأَبيض وهي كثيرة، على خلافِ المعهودِ من أَلوان الضأنِ والمعز.. [انظر التكوين٣٠: ٢٥-٤٣].

إنَّ الخرافةَ التي ذَكرها الأَحبارُ لا تتفقُ مع العقلِ والمنطق، فمن غيرِ المعقولِ أَنْ يوقِفَ الإنسانُ الغَنَمَ أَثناء حَمْلِها أَمامَ عِصِيٍّ بيضاءَ، لتَتَوَحَّمَ عليها وتلدَ غنماً بيضاء، وأَنْ يوقفَها أَمامَ عِصِيٍّ سوداءَ، لتتوحَّمَ عليها وتلدَ غنماً سوداء!

ونحن نُنَزِّهُ النبيَّ الكريمَ يعقوبَ عليه السلام عن القيامِ بهذه الحيلةِ الشيطانية، التي استحوذَ فيها على غَنَمِ خالِه!

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنه لما تحايَلَ يعقوبُ على خالِه بتلك الوسيلة، وأَحَسَّ بأَنَّ خالَه قد يبطشُ به. أَمَرَهُ الرَّبُّ بالعودةِ إلى أَرض كنعان: «فقالَ له الربُّ: ارجعْ إلى أَرضِ آبائك ومَسقطِ رأْسِك، وأَنا أَكونُ معك».

قالَ الأَحبارُ: «قامَ يعقوبُ وحَمَلَ بَنيهِ وزوجاتِه على الجِمال، وساقَ كُلَّ ماشيتِه، وكُلَّ الأَموالِ التي اقْتَناها في فَدّان أَرام، وتوجَّهَ إلى أَبيه

إِسحاق في أَرضِ كَنعان. وكان لابانُ غائباً، يَجُزُّ غَنَمَه، فسَرَقَتْ راحيلُ أَصنامَ منزلِ أَبيها، وخَدَعَ يعقوبُ خالَه لابانَ الآرَاميَّ، ولم يُخبرْه بفِرارِه، وهَرَبَ بجميعِ ما كانَ له، وعَبَرَ نهرَ الفُرات، وتوجَّهَ نحوَ جبل جِلْعاد»

[التكوين٣١: ١٧-٢١].

الصلح بين يعقوب وخاله في جلعاد:

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنه بعدَ ثلاثةِ أَيامٍ من فرارِ يعقوبَ، علمَ خالُه لابانُ بالأَمر، فلَحِقَ به، وكانَ يعقوبُ قد وَصَلَ جبلَ جِلْعاد، شرقيَّ نهرِ الأُردن، فاجتمعا في جبلِ جِلْعاد، ولامَ لابانُ يعقوبَ وعاتَبَه على فعْلِه، وتحايَلَتْ راحيلُ على أَبيها وكَذَبَتْ عليه، وأَخْفَتْ أَصنامَه التي سرقَتْها..

وبعدَ محاورةٍ ومعاتبةٍ ولومٍ متبادلٍ، بينَ يعقوبَ وخالِه لابان، اقترحَ لابانُ عليه عَقْدَ عهدٍ بينَهما، وقال له: «والآنَ فهلُمَّ نَقطعْ عَهْداً أَنا وأَنت، ولتكُنْ هذه الحجارةُ شاهِداً بَيْني وبينَك».

فأَخَذَ يعقوبُ حَجَراً، وجَعَلَه نُصُباً، وجَمعوا حجارة، وجَعَلوها كومَة، وأَكَلوا طَعاماً فوقَ الكومَة، وقالَ لابانُ ليعقوب: هذه الكومةُ تكونُ شاهِداً بيني وبينك اليوم.

وسَمّاها لابانُ بلغَتِه الآرامية «يَجَرَ سَهْدُوتَا» وسَمّاها يعقوبُ بلغتِه

العِبرية: «جِلْعاد» ومعناه: كَوْمَةُ الشهادة.

وشَدَّدَ لابانُ على يعقوبَ بوجوبِ الالتزامِ بما تَعاهَدا عليه، ويَبدو أنه لم يكنْ يَأمَنُه، بسببِ ما عملَه به وفقَ مزاعمِ الأَحبار.

وكان مما قالَه لابانُ ليعقوب -حسبَ مزاعمِ الأَحبار-: «الربُّ يُراقِبُ ويُصافي بيني وبينك، عندما يَتوارى أَحَدُنا عن الآخر، إِنْ أَذْلَلْتَ ابنَتَيَّ أو تَزوجْتَ نساءً عليهما، فلا أَحَدَ معَك ليَرى، ولكنَّ اللهَ شاهدٌ بيني وبينَك.

وهذه هي الكومَة، وهذا هو النُّصُبُ شاهدٌ على أني لا أَتخطَّى هذه الكومَةَ إِليك، وأَنتَ لا تتخطّى هذه الكومَةَ إِليّ للشّرّ، إِلهُ إِبراهيمَ وإِلهُ ناحورَ يَحكمُ بيننا..» [التكوين٣١: ٢٢-٥٤].

وقد علّقَ الرهبانُ على العهدِ بينهما بأنه أَشبهُ ما يكونُ بميثاقٍ سياسي، يُبَيِّنُ الحُدودَ بينَ لابانَ ويعقوبَ، أَوْ بينَ الآراميّين وإِسرائيل، واتفاقيةٍ خاصةٍ بابنَتَي لابانَ زوجَتَيْ يعقوب .. مع تفسيرِ اسمِ «جِلْعاد» بأنه: كومَةُ الشهادة. وتفسيرُ «المصفاة» بأَنها: المرقِبُ. ومعنى «مصفاة جلعاد»: المُصافي والمراقبُ عند كومةِ الشهادة.

و«مصفاةُ جلعاد» مكانٌ عَبْرَ الأُردن، جنوبيَّ نهرِ اليَبُّوق. [العهد القديم: ١١٦، حاشية: ٩].

ونَهْرُ «يَبُّوق» هو نهرُ الزرقاءِ المعروف، الذي كان ينبعُ من رأسِ العَيْنِ في عمان، ويَمرُّ بالزرقَاء، ويصبُّ في نهرِ الأُردن، وهذا معناهُ أَنَّ «مصفاةَ جلعاد» تقعُ جنوبيَّ نهرِ الزرقاء، ولعلَّها بين سيلِ الزرقاء وجبالِ البلقاء.

تنزيه يعقوب عن الخداع:

ونحن نتحفَّظُ على هذهِ التفاصيلِ التي سَجَّلَها الأَحبارُ لما جرى بينَ يعقوبَ وخالِه لابان، بل إِننا نتحفَّظُ على توجُّهِهِ أَصْلاً إِلى «حَرّان»، وإِقامتِه هناك، وزواجِه مِن هناك، لأَنَّ ما ذكرَه الأَحبارُ بهذا الخصوصِ لم يَرِدْ في مصادرِنا الإِسلاميةِ ما يُوافِقُه ويُؤكّدُه، أَو يُخالفُه ويَرفضُه، فلا نصدِّقُهم في قولِهم، كما أَننا لا نُكَذِّبُهم فيه.

أَمَا ما نسبَهُ الأَحبارُ إِلى يعقوبَ عليه السلام من كذبٍ وتحايلٍ وخداعٍ لخالِه، ثم سرقةِ أَغنامِه وأَموالِه فإِننا نرفضُه ونَرُدُّه، ونُنَزِّهُ يَعقوبَ عن فعلِه، لأَنَّ يعقوبَ عندنا في الإِسلام نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، عَصَمَهُ اللهُ عن الذنوبِ والآثامِ والمعاصِي والمفاسد، وكان قدوةً لمنْ بعدَه في حسنِ خُلُقِه وصوابِ فعلِه وتعاملِه، وخوفِه من ربِّه، وإِحسانِه لمن أَحسنَ إِليه!!

أولاد يعقوب الإثنا عشر:

تحدَّثَ الأَحبارُ عن أَولادِ يعقوب، وذَكَروا اسْمَ كُلِّ واحدٍ منهم، ومعناه، واسْمَ أُمِّه.

ذَكَروا أَنَّ يعقوبَ تزوَّجَ لَيْئَة ابنةَ خالِه، فأَنجبَ منها ستةَ أَبناء، هم:

١-رَأُوبين: وسُمِّيَ بذلك لأَنها لما ولدَتْه قالت: رأى ربّي عَنائي، والآنَ يُحِبُّني زوجي، فاسْمُه مأخوذٌ من الرؤية. وهو ابنُ يعقوبَ البكْر.

٢-شَمْعون: وسُمِّيَ بذلك لأَنها لما وضعَتْه قالت: سمعَ الربُّ أَنّي مكروهة، فرزَقَني هذا أَيضاً، فهو مشتقٌّ من السَّماع.

٣-لاوي: وسُمِّيَ بذلك لأَنها لما وضعَتْه قالت: الآنَ يَلوي ويَعطفُ عليَّ قلبُ زوجي، لأَنّي ولدتُ له ثلاثةَ بَنين. فهو مشتقٌّ من اللَّوْي والطَّيِّ والعَطْفِ والتعلُّق.

٤-يَهوذا: وسُمي بذلك لأَنها لما وضَعَتْه قالتْ: هذه المرةُ أَحمدُ الربَّ وأُقِرُّ بفَضْلِه. فهو مشتقٌّ من الهَوْدِ والحمدِ والرجوعِ إِلى الربّ.

٥-يَسّاكر: وسُمِّيَ بذلك لأَنها لما وضعَتْه قالَتْ: الآنَ جَزاني اللهُ خَيْراً، وشكَرَ لي عَمَلي، وأَعطانِي أَجْري. فهو من الشُّكْر.

٦-زَبولون: وسُمِّيَ بذلك لأَنها لما وضعَتْه قالَتْ: وَهَبَني اللهُ هِبَةً حَسَنَة، وأَكْرَمني، فالآنَ يحتملُني زوجي، لأَني ولَدْتُ له ستةَ بَنين.

٧-دينَة: وهي البنتُ الوحيدةُ ليعقوب.

أَما زوجَتُه الثانيةُ راحيل، وهي أُخْتُ لَيْئَة، وقد أَنجبتْ ليعقوبَ ابنَيْن

اثنَيْن:

الأَوَّل: يوسُف: وقد أَنَجبَتْه ويعقوبُ في حَرّان عندَ خالِه، وسميّ بذلك لأَنها لما وضعَتْه قالَتْ: أَزالَ اللهُ عاري وأَسفي. لأَنها كانت عاقراً لا تَلِد، ففي الوقتِ الذي ولدَتْ أُخْتُها لَيْئَة ستةَ ذكور وأُنثى واحدة، كانت هي لا تُنجب، وكانت تتأسَّف، فلما وضعَتْ مولدَها زالَ أَسفُها وتَحَرُّجُها.

الثاني: بِنْيامين: وقد حملَتْ به بعد العودةِ إلى أَرضِ كنعان، وجاءَها المخاضُ بعد ارتحالِ يعقوبَ من بيتِ إيل إلى بئر السبع، وقد تعسَّرَتْ ولادَتُها فأَخبرتْها القابلةُ أَنها ستلدُ وَلَدا، فسَّمته «بنُ أُوني» .. ثم ماتَتْ ومعنى بنِ أَوني: ابْنُ تَعَبي.

ولما ماتَتْ راحيلُ سَمّاه يعقوبُ بُنيامين، من اليُمْنِ والبَرَكَة.

وكان لراحيلَ جاريةٌ اسْمُها: بِلْهَة، وهبَتْها ليعقوبَ، لأَنها لم تكنْ تُنجب، ولما دخلَ بها يعقوبُ أَنجبْت له ولدَيْن:

الأَول: دان، وسُمِّيَ بذلك، لأَنها لما وضعَتْه قالَتْ سيدتُها راحيل: دانَني اللهُ وسَمِعَني، وحَكَمَ لي وأَعطاني.

الثاني: نَفْتَالي: وسُمي بذلك لأَنها لما وضَعَتْه قالتْ سيدتُها راحيل: لقد صارَعْتُ أُختي وخدعتُها وغلبْتُها.

ولما رأتْ لَيْئَةُ جاريةَ أُختِها راحيل تَلِد، وهَبتْ لزوجِها يعقوبَ جاريتَها زِلْفة، ولما دخلَ بها يعقوبُ أَنجبتْ له ولدَيْن:

الأَول: جادْ، وسُمي بذلك، لأنها لما وضعَتْه فرحَتْ سيدتُها لَيْئَة، وقالَتْ: يالَمْجدي وحَظّي.

الثاني: أَشير، وسُمّي بذلك لأَنها لما وضَعَتْه قالت سيدتُها لَيْئَة: يالَسروري وفَرحتي وهَنائي. إن النساء ستُهنِّئني به.

وهكذا يكونُ ليعقوبَ اثْنا عَشَرَ وَلَداً ذكراً وبنْتاً واحدة. [سفر التكوين٢٩: ٣١-٣٥ و٣٠: ١-٢١].

ونحنُ نتحفَّظُ على هذه الأسماءِ ومعانيها وتفصيلاتِها، ونعتبرُها من الإِسرائيلياتِ المسكوتِ عنها في دينِنا، فلا نُصَدِّقُها، ولا نُكَذِّبُها، ولا تهمُّنا معرفةُ أَسماءِ هؤلاء الأَبناء.

ولم يذكرْ لنا القرآنُ إلا اسْمَ النبيِّ يوسفَ عليه السلام، ونحنُ نقولُ بما قالَ: به القرآن، ونسكتُ عن ما سكتَ عنه القرآن، والله تعالى أَعلم!

صراع يعقوب مع الله!

زَعَمَ الأَحبارُ أَنه لما عَقَدَ يَعقوبُ عَهْداً مع خالِه لابان في جِلْعاد، وعادَ خالُه إلى حَرّان، سارَ يعقوبُ بأَهلِه ورجالِه وعبيدِه متوجِّهاً نحو الجنوب، لملاقاةِ أَخيه عيسو، الذي كانَ في أَرضِ «أَدوم» شرقِ البحرِ الميت،

والاجتماعِ بأَبيهِ إِسحاق، الذي في بئرِ السبع في النَّقَب.

وأَمَرَ رجالَه أَنْ يَسبقوه بالغَنَمِ والعَبيد، فسبَقوه وعَبَروا نَهْرَ يبُّوق، سائرينَ نحو الجنوب.

وفي الليلِ حدثَتْ ليعقوبَ حادثةٌ خطيرة، حيثُ صارعَ فيها الرَّبُّ الذي تجسَّمَ له في صورةِ رجلٍ واعترضَه!

لِندَعِ الأَحبارَ الكفارَ يَرْوونَ حديث تلكَ المصارعةِ!

النص المثير في سفر التكوين:

قالوا: «قامَ يَعقوبُ في الليل، وأَخَذَ امرأَتَيْه وجاريَتَيْه، وبَنيه الأَحَدَ عَشَر، وعَبَرَ مَخاضَةَ يبُّوق، أَخَذَهم وأَرسلَهم عبْرَ الوادي، مع كلِّ ما كانَ له، وبَقيَ يعقوبُ وحْدَه..

فصارعَه رجلٌ حتى طلوعِ الفجر، ولما رأى الرجلُ أَنه لا يقوى على يعقوبَ في هذا الصراع، ضَرَبَ حُقَّ وِركِهِ فانْخَلَع!

وقالَ الرجلُ ليَعقوب: طَلَعَ الفجرُ فاترُكْني واصْرِفْني!

فقالَ يعقوب: لا أَتركُكَ وأَصرفُكَ حتى تبارِكني!!

فقالَ الرجل: ما اسْمُك؟

قالَ: اسْمي يعقوب!

قالَ الرجلُ: لا يكونُ اسْمُك يعقوبَ بعد الآن، بل اسْمُك: إِسرائيل. لأَنَّكَ صارَعْتَ وغالَبْتَ اللهَ والناسَ فَغَلَبْتَ!!

وسأَلَ الرجلَ: أَخْبِرْني ما اسْمُك؟

فقالَ له: ولماذا تسأَلُ عن اسْمي؟ .. وباركَه هناك!

وسَمّى يعقوبُ ذلك الموضعَ «فَنوئِيل»، وقال: لأَني رأَيتُ اللهَ وجْهاً لوجْهٍ، ونجوْتُ بِحَياتي..

وأَشْرَقَتْ له الشمسُ عند عُبورِه فنوئيل، وهو يَعْرُجُ مِنْ وِرْكِه، ولذلك لا يأْكُلُ بنو إِسرائيل عِرْقَ النِّسا الذي في حُقِّ الوِرْكِ إلى هذا اليوم، لأَنَّ الرجلَ ضربَ حُقَّ ورْكِ يعقوبَ على عِرْقِ النِّسا» [التكوين٣٢: ٢٢-٣٣].

جَرَتْ مشاهِدُ هذه الحادثةِ المثيرةِ في ليلةٍ مظلمة، جنوبَ نهر يَبُّوقَ، الذي هو نهرُ الزرقاء، الذي ينبعُ من عَمّان -ربَّةُ عمّون في ذلك الزمان- ويَجري نحوَ الشمالِ الشرقيِّ حيثُ الزرقاء، ثم يَنعطفُ غَرْباً، ويمرُّ بالقربِ من مدينةِ جرش، ثم يَصُبُّ في نهرِ الأُردن.

أَمَرَ يعقوبُ -وفْقَ مزاعمِ الأَحبار- أَهلَه أَنْ يَسْبِقوه، وبقيَ وحْدَه جنوبيَّ نهرِ يَبّوق.

وفوجئَ برجلٍ قويٍّ يهجمُ عليه في الليلِ المظلم، ودافعَ يعقوبُ عن نفسِه، إذْ كيفَ يستسلمُ لرجلٍ غريبٍ اعتَدى عليه؟ وتصارعَ الرجلانِ طولَ الليلِ، وكان يَعقوبُ من القوةِ بحيثُ لم يتمكَّن الرجلُ من غَلَبَتِه وهزيمتِه، وطَلَعَ الفجرُ والرجُلانِ يَتَصارعان، عند ذلك اضطرَّ الرجلُ المهاجِمُ إلى الحيلةِ والخداع، وضَرَبَ عِرْقَ النِّسا الذي في حُقِّ وِرْكِه، فانخلعَ حُقُّ وِرْكِه، ومع ذلك بقيَ يعقوبُ ممسكاً بالرَّجل، متمكّناً منه.

وعندما طلعَ الفجرُ عرفَ يعقوبُ أَنَّ خصْمَه وغريمَه الذي أَمضى الليلَ في صراعِه معه ليسَ إنساناً عاديّاً، وإنما هو الربُّ نفْسُه! ولم يُخبرْنا هؤلاء الأَحبارُ الكفارُ كيف عَرَفَ يعقوبُ أَنَّ غريمَه هو الربّ!!

وخشيَ الربُّ المغلوبُ المصروعُ أَنْ تُشرقَ الشمسُ، ويستيقظَ الناسُ ويَرَوْا الربَّ مغْلوباً مصْروعاً! فَرَجا يعقوبَ أَنْ يَتركَه ويَصرفَه! فرفضَ يعقوبُ أَنْ يفعلَ ذلك إلا بعدَ أَنْ يُبارِكَه!

يعقوبُ القويُّ الغالبُ يطلبُ البركةَ من الربِّ المغلوبِ!!

فسأَلَه الربُّ: ما اسْمُك؟ أَجابَه: اسْمي يَعقوب!

فأَخبرَه الربُّ أَنَّه غَيَّرَ اسْمَه من يعقوبَ إلى إسرائيل، وعَلَّلَ ذلك بأنه يَستحقُّ الاسْمَ الجديدَ لقوّته، وفسَّرَ الربُّ له معنى اسْمِه الجديدِ بقوله: تُسَمّى إِسرائيلَ لأَنَّكَ صارَعْتَ وغالَبْتَ اللهَ والناسَ وغَلَبْتَهم!!

وباركَ الربُّ المغلوبُ يعقوبَ الغالبَ في ذلك المكان .. وسَمّى يعقوبُ ذلك المكان «فَنوئيل».

الرهبان يوافقون الأحبار على هذا الكفر:

ومعنى هذه الكلمة: وَجْهُ الله. وعَلَّلَ يعقوبُ ذلك الاسمَ بأنه رأى اللهَ وَجْهاً لوجْهٍ في ذلك المكان، فناسَبَ أَنْ يُسَمِّيه وجْهَ الله.

وقبلَ أَنْ نَنظرَ في هذه الروايةِ اليهوديةِ الكافرةِ بمنظارِ القرآنِ، نسجِّلُ ما قالَه الرهبانُ في تعليقِهم عليها. قالوا: «المقصودُ في هذه الروايةِ الغامضةِ هو الصراعُ الجسَدِيّ، أَيْ: صراعٌ مع الله، يَبدو فيه يَعقوبُ الغالبُ أَوَّلاً .. لكنَّه حينَ عرفَ طبيعةَ خَصْمِه السَّامِيَة، اغْتَصَبَ بَرَكَتَهُ. مع العلمِ بأَنَّ النصَّ يتجنَّبُ اسْمَ الربّ، كما أَنَّ المعْتديَ المجهولَ يَرفضُ أَنْ يُسَمْيَ نفسَه .. وفي الواقعِ يَستعملُ المؤلّفُ قصةً قديمةً لتفسيرِ اسمِ «فَنوئيل»: وجْهُ الله، ولإِيجادِ أَصْلٍ لاسم إِسرائيل. وبذلك يُضْفي على تلك القصةِ مَعْنى دينيّاً، وهو أَنَّ يعقوبَ يَتَمَسَّكُ بالله، ويَغتصبُ منه بَرَكَة، تكونُ واجباً على الله، نحوَ الذين سَيحملونَ بعدَه اسْمَ إِسرائيل.. » [العهد القديم: ١١٨. حاشية: ٤].

أَمَّا تَغييرُ اسْمِه من يعقوبَ إِلى إِسرائيل فإِنَّ الرهبانَ يُعَلِّقونَ على ذلك قائلين: «يُفَسَّرُ هنا اسْمُ إِسرائيلَ بأَصْلٍ شعبي، وردَ في الترجمةِ اليونانية

والترجمةِ اللاتينية: «لأَنَّكَ قويتَ على الله!» لذلك يفسِّرُ بعضُهم إِسرائيل بِ«لِيَقْوَ اللهُ»! [العهد القديم: ١١٩، حاشية: ٥].

إِنَّ الرهبانَ يُوافقونَ الأَحبارَ على صراعِ يَعقوبَ للرب، ويَعتبرونَه صِراعاً جسدِيّاً خالِصاً، أَيْ صراعاً بين شخصَيْن، يَغلبُ فيه يعقوبُ الربَّ، ثم يغتصبُ منه البركة، ويأْخُذُها منه بالإِكراهِ.

معنى إِسرائيل: الذي قوي على الرب:

ويَذكرُ الرهبانُ معنى محدداً لاسمِ يعقوبَ الجديدِ «إِسرائيل»، وهذا المعنى وردَ في الترجمةِ اليونانيةِ واللاتينيةِ لِسِفْرِ التكوين، وهذا المعنى المحدَّدُ هو: «الذي قَوِيَ على الله»، وسَمّى الربُّ يعقوبَ به لأَنه قَوِيَ وتَغَلَّبَ عليه في صراعِه معه في تلك الليلة.

أَمّا معنى «إِسرائيل» في قاموسِ الكتابِ المقدَّس فهو: «يُجاهدُ مع الله» أَو «اللهُ يصارِع» [قاموس الكتاب المقدس: ٦٩].

ويبدو أَنَّ المعنى الأَوَّلَ هو الراجح، لأَنَّ الربَّ الذي غَيَّرَ اسْمَ يعقوبَ عَلَّلَ ذلك به: «لا يكونُ اسْمُك يعقوبَ بعد الآن، بل اسْمُك: إِسرائيل. لأَنَّكَ صارَعْتَ وغالَبْتَ اللهَ والناسَ فَغَلَبْتَ».

أَيْ: أَنتَ صارَعْتَ الناسَ فغلَبْتَهم، وصارَعْتَ اللهَ فغلَبْتَه، ولذلك أَنتَ

إِسرائيلُ. أي: أَنتَ القويُّ الغالبُ!!

وقد أَخطأَ واضعو «قاموس الكتاب المقدس» عندما فَسَّروا معنى إِسرائيلَ بقولهم: «لا يُدْعى اسْمُك فيما بعدُ يَعقوب، بل إِسرائيل، لأَنكَ جاهَدْتَ مع اللهِ والناسِ وقَدِرْتَ» [قاموس الكتاب المقدس: ١٠٧٤].

فقد جاءُوا بكلمةِ «مَع» من عندِهم، ليُخَفِّفوا وَقْعَ معناهُ المذكورِ في سِفْرِ التكوينِ على الناس! لكنَّ الربَّ فَسَّرَها بالتفسيرِ المحدَّدِ: «لأَنك صارَعْتَ اللهَ والناسَ فغلَبْتَ» كما وردَ بالنص، وهذا لا يَحتملُ أَيَّ معنى آخر!!

إِذن: المعنى الحرفيُّ الدقيقُ لكلمةِ إِسرائيل هو: «الذي صارَعَ اللهَ والناسَ فَغَلَبَهُم»

مظاهر كفر الأحبار في زعم الصراع مع الرب:

لقد كان الأَحبارُ كافرين بالله، مفترين عليه، في زعْمِهم صراعَ يعقوبَ معه، وتَغَلُّبِه عليه.

ومظاهرُ كفرهم في الروايةِ السابقة هي:

١- تجسيمُ الربِّ في صورةٍ ماديةٍ مجسَّمةٍ محدودَة، حيثُ حَوَّلوه إِلى رجلٍ بَشَر، يَسيرُ ويتحرك، ويَنزلُ ويتجوَّل، كباقي الرجالِ البشر.

٢-اعتداءُ الربِّ البَشَرِ على يعقوب، حيثُ زعموا مهاجَمَتَه له بدون سَبَب، مما دفعَ يعقوبَ إلى مصارعتِه طيلةَ الليل، وهل الربُّ يَعْتدي؟ وهل يُصارعُه الإنسانُ المعتدى عليه.

٣-زَعْمُهم أنَّ يَعقوبَ غَلَبَ ربَّه في الجولةِ الأُولى من جولاتِ المصارعةِ بينهما! مما اضطرَّ الربُّ المغلوبُ إلى الحيلةِ والمكرِ لهزيمةِ غريمِهِ يعقوب!

وهل يمكنُ لبشَرٍ أَنْ يَغلبَ الربَّ مهما بلغَتْ قوَّتُه؟ وماذا يبقى للربِّ من الربوبيةِ إذا كان مَغْلوباً مَصْروعاً أمام واحدٍ من البَشَر؟

٤-الربُّ المغلوبُ يَخْشى الفضيحة، فكيفَ يكونُ وضْعُه إذا طلعَ النهارُ، ورآه أَحَدُ خَلْقِه مغلوباً؟ لذلك يَرجو غَريمَه الغالبَ أَنْ يُطلقَ سَراحَه ويَصرفَه! أَيُّ رَبٍّ هذا؟

٥-اشْتَرَط الغالبُ على المغلوبِ مباركتَه ليُطلقَ سراحَه، وهذا تناقضٌ عقليٌّ يقعُ فيه الأَحبار المفْتَرون، فما هي حاجةُ الغالبِ لمباركةِ المغلوب؟

٦-الربُّ المغلوبُ يُباركُ غريمَه المنتصر، ويُغَيِّرُ اسْمَه، ويُعطيه اسْماً جديداً، يُسجلُ هذه الحادثة، ويَعترفُ بقوتِه وسيطرتِه!

٧-يُسَجِّلُ اسْمُ يعقوبَ الجديدُ «إِسرائيل» -وفقَ زَعمْ الأَحبار- نظرةَ بني إِسرائيلَ إلى أَنفسهم، واغترارَهم بقوَّتِهم، وتَصَوُّرَهم للرَّبِّ. إنهم مفتونون بقوَّتِهم، حتى إِنهم يَرونَ أَنفسَهم أَقوى من الربّ!!

وَنَشهدُ أَنَّ اللهَ لم يُنزلْ هذا الكلامَ على موسى عليه السلام، وإِنما هو من مزاعمِ الأَحبارِ الكفار، ومن مظاهرِ تحريفِهم للتوراة!!

يعقوب في الأرض المقدسة

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّه بعدَ ما صارَعَ يعقوبُ ربَّه، وغَيَّرَ اسْمَه إلى إسرائيل، الْتقى مع أَخيه عيسو، جنوبيَّ نهرِ يَبُّوق، وعانَقَ كلٌّ منهما الآخَرَ وقَبَّلَه، وأَعطى يعقوبُ أَخاه هديَّةً قَيِّمَةً من الماشية، وعادَ عيسو إلى مكانِ إقامتِه في سَعير، وأَقامَ يعقوبُ فترةً في شرقِ الأُردن، في منطقةٍ سَمَّاها «سُكُّوتْ».

ويحدِّدُ قاموسُ الكتابِ المقدس مكانَها في غورِ الأُردن: «سُكّوت: اسْمٌ عبرانيّ معناه: مَظَلاّت. وهو المكانُ الذي رَحَلَ إليه يَعقوبُ، بعدَ أَنْ تَرَكَ أَخاه عيسو، وقد أَطْلَقَ عليه هذا الاسْمَ بعد أَنْ أَقَامَ فيه مَظَلاّت، له ولِبَنيه ولمواشيه .. وتقعُ سُكّوتُ شرقَ الأُردن وشمالَ مَخاضَةِ يَبُّوق.

ومن مزاميرِ داودَ نَعرفُ أَنها كانتْ تقعُ في وادِ. ومكانُها اليومَ «تَلُّ أَخْصاص» غربيَّ دير علا، بالقربِ من اليَبُّوق «نهرِ الزرقاء»، وعلى بُعْدِ أَربعةِ أَميالٍ شرقيَّ الأُردن» [قاموس الكتاب المقدس: ٤٧٢].

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يَعقوبَ عَبَرَ من سُكُّوت إلى أَرضِ كنعانِ غربَ نهرِ الأُردنّ. وتوجَّهَ إلى مدينةِ «شَكيم»، واشْتَرى قطعةَ أَرضٍ من ملكِ المدينة «حَمُور» بمائةٍ من الفضَّة، ونَصَبَ فيها خيمتَه، وأَقامَ فيها مذبحاً للربِّ «إيل» إلهِ إسرائيل..» [التكوين٣٣: ١-٢٠].

وورَدَ في قاموسِ الكتابِ المقدس عن شَكيم: «شَكيمُ: اسْمٌ عبري، معناه: كَتِفٌ، أَو مَنْكِب، وهي مدينةٌ كنعانيةٌ قديمة، كان الكنعانيّون يَسكنونَ فيها، وخَيَّمَ بالقربِ مِنها إبراهيمُ عندما قَدِمَ من العراق، وفيها اشترى يعقوبُ أرضاً، نَصَبَ فيها خيمتَه .. وصارتْ «شَكيم» عاصمةَ إِسرائيلَ في عَهد يُرُبَّعام .. وسارَ في وادي شَكيمِ الأمبراطورُ الروماني «فَلافيس»، وأَعادَ بناءَ المدينةَ، وسمّاها «فَلافيا نيابوليس». أَيْ: فَلافيا المدينةُ الجديدة، واشْتُقَّ من هذا الاسم اسْمُها الجديد «نابلس» [قاموس الكتابِ المقدس: ٥١٤-٥١٥].

وموقفُنا من هذه المزاعمِ الإِسرائيلية هو التوقُّف، لعدمِ وجودِ دليلٍ نعتمدُ عليه، فلا نُصَدِّقُها ولا نُكَذِّبُها!!

مذبحة إِسرائيلية في شكيم:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنه بعدما أَقامَ يَعقوبُ في سهْلِ شكيمِ بفَتْرَةٍ وقعتْ حادثةٌ خطيرة، نالَتْ عِرْضَ يعقوب.

قالوا: «خَرَجَتْ دينَةُ بنتُ لَيْئَة التي ولَدَتْها ليَعقوب، لتُشاهدَ بناتِ تلك الأَرض، فرآها شَكيمُ بنُ حَمورَ الحُويُّ، أَميرُ تلك الأَرض، فأَخَذَها وضاجَعَها واغْتَصَبَها، وتَعَلَّقَ قلْبُه بها وأَحَبَّها، وقالَ لأَبيه حَمور: خُذْلي هذه الفتاةَ زوجةً .. وسمع يَعقوبُ أَنَّ شكيمَ قد اغتصبَ ابنتَه دينَة، فسكتَ

حتى جاءَ بَنوه الذين كانوا مع ماشيتِه في البَرِّيَّة» [التكوين ٣٤: ١-٥].

وهذا زعْمٌ مردود، لا يَتفقُ مع منزلةِ يَعقوبَ باعتبارِه نبيّاً، فمن المعلومِ أَنَّ اللهَ يَحفظُ أَنبياءَه ورسلَه، ويَحفظُ شرفَهم وعِرْضَهم من التدّنيس، ويعقوبُ نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، يَعصمُه اللهُ ويَحفظُه ويَصونُ عِرْضه!

لذلك لا نَقبلُ زعْمَ الأَحبارِ أَنَّ شكيمَ ابنَ مَلِكِ المدينة اغتصبَ الفتاةَ دينَةَ، ابنةَ النبيِّ يعقوب عليه السلام، وأَنه لما علمَ أَبوها بذلك سَكَتَ لأَنه كان وحيداً، وانتظرَ أياماً حتى جاءَ أَولادُه من البرِّيّة.

بعدَ هذا التحفُّظِ على روايةِ اغتصابِ ابنةِ النبي، نُتابعُ روايةَ الأَحبارِ لما جرى بعد ذلك.

أبناء يعقوب يمكرون بأهل شكيم:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنه لما عادَ أَبناءُ يعقوبَ من الرعْي، وعَلِموا بما جرى لأُخْتِهم غضبوا جداً، وصَمَّموا على الانتقام.

وزَعَموا أَنه جاءَ حَمورُ والدُ شكيمَ المغتصبِ إلى يعقوبَ وأَبنائِه، وطلبَ منهم تزويجَ دينةَ لابنِه شَكيم، وقال لهم: «وَقَعَ قلبُ شَكيمَ ابني في غرامِ ابنتكم، فأَعطوها زوجةً له، وصاهِرونا، أَعْطونا بناتِكم وخُذوا بناتِنا، وأَقيموا مَعَنا، هذه الأَرضُ بين أَيديكم، فاسْكُنوا فيها وجُولوا وتَمَلَّكوا..».

وقالَ لهم ابنُه شِكيم: «ارْضُوا عَلَيَّ، وما تطلبونَه منّي أُعطيه، أَكْثِروا عَلَيَّ المهرَ والهدايا، وأَنا أُعطيكم كلَّ ما تطلبون..».

فأَجابَ بنو يَعقوبَ شَكيمَ وأَباه بمكْرٍ وكَيْد، وتَحايَلوا عليهما، فأَظهروا لهما الموافقةَ على الزواج، لكن بشرطِ أَنْ يَختتِنَ كلُّ ذَكَرٍ في المدينة. قالوا لهما: «لا نَقدِرُ أَنْ نفعلَ هذا، فنعطيَ أُخْتَنا لرجلٍ غيرِ مختون، لأَنه عارٌ عندنا .. ولكننا نوافِقُكم في حالٍ واحدة؛ أَنْ تَصيروا مِثْلَنا، بأَنْ يَختَتِنَ كُلُّ ذكَرٍ منكم، فنعطيَكم بناتِنا، ونأْخذَ لنا بناتِكم، ونُقيمَ معكم، ونَصيرَ شَعْباً واحداً، وإِنْ لم تسمَعوا لنا وتَختَتِنوا نأخذُ بنتَنَا ونمضي..

فحسُنَ كلامُهم عند حمورَ وابنِه.

وذهبَ حَمورُ وابْنُه إِلى أَهْلِ مدينةِ شَكيم، وقالا لهم: هؤلاءِ القومُ مسالمون لنا، فلْيُقِيموا في هذه الأَرض، ويَتجوَّلوا فيها، والأَرضُ واسعةٌ جدّاً أَمامَهم، فنتزوجُ بناتِهم، ونزوجُهم بناتِنا، ولكنَّهم لا يُوافقونَنا على أَنْ يُقيموا مَعَنا ونَصيرَ شَعْباً واحداً، إِلاَّ إِذا اخْتَتَنَ كلُّ فردٍ منَّا مثلَهم!

فسمعَ لِحَمورَ وابنِه جميعُ أَهلِ الرأيِ في المدينة، واخْتَتَنَ كلُّ ذَكَرٍ في المدينة..».

وهكذا انْطَلت الحيلةُ على أَهْلِ مدينةِ شَكيم، وأَحْسَنوا الظنَّ بأَبناءِ يعقوب، واعْتَبروهم قوماً مُسالمين.

رَجلان يبيدان مدينة شكيم:

ماذا حَصَلَ بعدَ اختتانِ كلِّ ذَكَرٍ في المدينة؟

نُتابعُ روايةَ الأَحبارِ في زعمِهم: «وفي اليوم الثالث، وبينما كانَ أهلُ المدينةِ متوجِّعينَ من الخِتان، أَخَذَ لاوي وشمعونُ ابْنا يعقوبَ سيفَيْهما، ودَخَلا مدينةَ شكيم آمِنين، فَقَتَلا كلَّ ذَكَرٍ فيها، ومنهم حَمورُ وابنُه شَكيم، وأَخَذا أُخْتَهما دينةَ من بيتِ شَكيم، وخَرَجا..

ثم دخلَ بَنو يعقوبَ على القَتْلى، ونَهَبوا كلَّ ما في المدينة، انْتقاماً لتدنيسِ أُختِهم، فأَخذوا غَنَمَهم، وبَقَرَهم وحَميرَهم، وكلَّ ما في المدينة، وكلَّ ما في الحقول .. وسَبُوا وغَنِموا جميعَ ثَرواتِهم، وكلَّ أَطفالِهم ونسائِهم وسائر مَا في البيوت!!

فقالَ يعقوبُ لشمعونَ ولاوي: قد جَلَبْتُما الشَّقاءَ عليَّ، وسَوَّدْتُما وجهي عندَ أَهلِ البلد، من كَنْعانِيّين وفرِزِّيين، ونحنُ قليلٌ عَدَدُنا، فإن اجتمعوا عَلَيَّ وهاجَموني هلكتُ أَنا وأَهلُ بيتي..» [التكوين٣٤ :٦-٣٠].

إنها أَوَّلُ مذبحةٍ في أَرضِ كنعان، تَحْدُثُ على يدِ بني إِسرائيل، وستقعُ بعدَها مذابحُ عديدة، رواها الأَحبارُ في أَسفارِ العهدِ القديم.

ملاحظات على أسطورة الإبادة:

ولنا على هذه الروايةِ المزعومةِ ملاحظاتٌ منها:

١-الشَّكُّ في وقوعِها، لأَنها تقومُ على أُسطورةٍ خرافية، كلُّ ذَكَرٍ في المدينةِ مختون، ولعلَّ عددَ هؤلاء آلافٌ، ويَدخلُ المدينةَ رَجُلان اثنان فقط، وكلُّ واحدٍ يحملُ سَيْفاً، ويَميلانِ على الرجال، ويَقْتلانِهم جميعاً بحدِّ السيف، وهؤلاء الآلافُ أَو المئاتُ عاجزونَ عن الحركةِ لأَنهم متوجِّعونَ من آلامِ الختان! وكلُّهم على مستوى واحدٍ من العَجْز، بحيثُ لا يَقدرُ أَحَدٌ على أَنْ يتحرَّكَ ويَدفعَ عن نفسِه! وجميعُ النساءِ في المدينة عاجزاتٌ عن الحركةِ والدفاعِ عن رجالهنَّ المختونين، وغيرُ قادراتٍ على الهجوم على رجلَيْن اثْنَيْن فقط!!

يريدُ الأَحبارُ منّا أَنْ نصدِّقَ هذه الأُسطورةَ التي لا تتفقُ مع العقل! رجلانِ يَحملانِ سيفَيْنِ، يُبيدانِ آلافَ الرجالِ، لأَنهم مختونون!!

٢-وعلى فرضِ صحةِ الرواية، ووقوعِها على هذه الصورة، يكونُ أَبناءُ يعقوبَ ظالمينَ مجرمين، فإذا كان الرجلُ قد اغتصبَ الفتاةَ، يكونُ هو المعتدي المخطئ، ولهم الحقُّ في معاقبتِه وقتْلِه، ولو فَعلوا ذلك لما لامَهم أَحد.

ولكنهم ظَلَموا وبَغوا واعْتَدوا على كلِّ أَهلِ المدينة، فما ذنبُ أَهلِ

المدينةِ حتى يُقْتَلوا جَميعاً؟ وهم لم يَشتركوا في جريمةِ الاغتصاب!

٣-تعامَلَ أَبناءُ يَعقوبَ مع أَهلِ شكيمَ بخبْثٍ ومَكْرٍ، حيثُ أوهموهم الموافَقَةَ على الزواجِ بشرطِ الختان. وهذا الخداعُ لا يتفقُ مع شخصيةِ يعقوبَ النبيِّ ولا مع أَبائِه المؤمنين!

٤-لم يكتفِ أَبناءُ يعقوبَ بقتْلِ رجالِ أَهلِ شَكيم، وإِنما نهبوا كلَّ ما فيها من أَموالٍ وأَنعامٍ وماشية، وسَبَوْا كلَّ ما فيها من أَطفالٍ ونساء، واستولَوا على حقوقِ الآخَرين، وأَخَذوا ما لا يحلُّ لهم أَخْذُه.

٥-إِننا لا نقبلُ هذه الروايةَ الإِسرائيلية، ونَعتبرُها من مزاعمِ الأَحبارِ التي ليس عليها دليل، لكنَّ تسجيلَها ضمنَ سِفْرِ التكوين، والزعْمَ بأنها من كلامِ الله، ومن بطولاتِ الأَجدادِ الإِسرائيليّين، وجزءاً من الدينِ اليهودي، يَسيرُ عَليه أَبناءُ اليهودِ في ذبحِ وإِبادةِ وتدميرِ الآخرين، دليلٌ على تمكُّنِ الإِرهابِ والعنفِ والعدوانِ من الشخصية اليهودية.

تجديد العهد ليعقوب في بيت إيل:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنّه بعدَ أَنْ ذَبَحَ أَبناءُ يَعقوبَ أَهلَ مدينةِ شَكيم، ونَهَبوا كلَّ شيء فيها، انتقلَ يعقوبُ بأَهلِه نحو الجنوب، وتوجَّهَ إِلى «بيت إِيل» -التي رأى فيها الربَّ أَثناءَ توجُّهِه إِلى خالِه في حرّان- وهناك جَدَّدَ له الربُّ عَهْدَه، وتَعَهُّدَه بتمليكِ أَرضِ الميعادِ له ولنَسْلِه!

زَعَموا أَنَّ الربَّ قالَ ليعقوب بعدَ أَنْ غادَرَ شَكيم: قُمْ فاصْعَدْ إلى بيتِ إِيل، وأَقِمْ هناك، واصْنَعْ مَذْبحاً لله، الذي تَراءى لك، عندَ هربِك من عيسو أخيك..

فطلَبَ يعقوبُ من أَهْلِه الاستعدادَ للذَّهابِ إلى بيتِ إيل، وقالَ لهم: أَزيلُوا الآلهةَ الغريبةَ التي بينَكم، وتَطَهَّروا، وبَدِّلوا ثِيابَكم..

فأَعطوا يعقوبَ كلَّ الآلهةِ الغريبةِ التي في أَيديهم، والحَلَقِ الذي في آذانِهم، فَطمَرَها يعقوبُ تحتَ البُطْمَةِ التي عندَ شكيم..

ولا نَدري من أَينَ أَتى أَهلُ يعقوبَ بالأَصنامِ الغريبة، وكيفَ يكونُ يعقوبُ نبيّاً ومع أَهلِه وأَولادِه أَصنام؟ وكيفَ يَضَعُ أَبناؤُه الحَلَقَ في آذانِهم؟ هذه كلُّها مزاعمٌ مِن مزاعِمِ الأَحبار!!

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنه بعد أَنْ بَنى يَعقوبُ المذبَحَ للربِّ في بيتِ إيل رأى الربَّ وكَلَّمه، وجَدَّدَ له الربُّ عَهْدَه وتَعَهُّدَه. قالوا: «وتراءى اللهُ ليعقوبَ أَيضاً، وقالَ له: اسْمُك يعقوب! لنْ تُسَمّى يعقوبَ بعدَ اليوم، بل يكونُ اسْمُك إسرائيل.

وقالَ له الله: أَنا اللهُ القدير: انْمُ واكْثُرْ، أُمَّةٌ ومجموعةُ أُمم تكونُ منك، وملوكٌ من صُلْبِك يَخْرُجون .. والأَرضُ التي وهبْتُها لإِبراهيمَ وإِسحاقَ أَهَبُها لكَ ولنَسلِك..

ثم ارتفعَ اللهُ عنه في الموضعِ الذي كلَّمه فيه! فَنَصَبَ يعقوبُ هناك عَموداً من حجر، وسَكَبَ عليه خَمْراً، وصَبَّ عليه زيتاً ليُكَرِّسَه للرب..»

[التكوين٣٥: ١-١٥].

إنَّ الأَحبارَ حَريصونَ على التذكيرِ بالعَهْدِ الذي قَطَعَهُ اللهُ على نفسِه بإعطاءِ الأَرضِ المقَدَّسَة لنَسْلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب، حتى يستقرَّ ذلك في العقليةِ اليهوديةِ على اختلافِ الزمانِ والمكان ..

ويَزعمونَ هنا أَنَّ يعقوبَ اجتمعَ بالربِّ في بيت إيل، كما يَجتمعُ أَيُّ رجلَيْنِ في لقاءٍ مشتَرَكٍ بينهما! وهذا كفرٌ بالله، لأَنه تجسيمٌ له في صورةٍ ماديةٍ مجسَّمة.

ولما انتهى الاجتماعُ المشتركُ بينهما ارتفعَ إلى السماء، من ذلك الموضع. وهذا تجسيمٌ آخَرَ لله..

وجاءَ يعقوبُ بعمودٍ من حَجَر، ونَصَبَه في الموضعِ الذي كان الربُّ جالساً فيه! وسَكَبَ على العمودِ خَمْراً، وصَبَّ عليه زيتاً!!

وهذا ضلالٌ آَخَر للأَحبارِ المفْتَرين، اتَّهموا فيه النبيَّ يعقوبَ باقتناءِ الخمر، وسَكْبِه على النُّصُب، ومعلومٌ أَنَّ الأَنبياءَ لا يَشربونَ الخمرَ ولا يَقتنونَها، فكيفَ يَتَقَرَّبُ نبيٌّ إلى ربِّه بالخَمْر؟

راوبين يزني بسرية أبيه:

زَعَمَ الأَحبارُ أنه بعدَ ما بنى يعقوبُ مَذْبَحاً للرَّبِّ في بيتِ إيل، انتقلَ بأَهلِه نحو الجَنوب، متوجَّهاً إلى أَبيه إِسحاقَ في بئرِ السبع.

ونَصَبَ خيمتَه في «مَجْدِلْ عِيدَر» بينَ بيتَ لحم والخليل ليستريحَ قَليلاً، وهناكَ ارتكبَ ابنُه البكْرُ فاحشةَ الزِّنا.

قالَ الأَحبار: «ثم رَحَلَ يعقوبُ من هناك، ونصبَ خيمتَه على الجانبِ الآخرِ من مجدِل عيدَر .. وبينما هو ساكنٌ في تلك الأَرضِ ذَهَبَ رأوبين فضاجَعَ بِلْهَةَ، سريَّةَ أَبيه، فسمعَ بذلك يعقوب..» [التكوين٣٥: ٢١-٢٢].

بِلْهَةُ كانتْ خادمةً لراحيل امرأةِ يعقوب، فوهَبَتْها راحيلُ لزوجِها، وهو عِندَ خالِه في حران، لِتكونَ أَمَةً له، يَتَسَرَّى بها ويُعاشرُها، ولما عاشَرَها أَنجبتْ له اثنَيْنِ من أَبنائِه الإِثني عشر. وهما: دَان ونَفْتالي.

ورأُوبين هو ابنُ يعقوب البِكْر، وأُمُّه لَيْئَة، امرأةُ يعقوبَ الأُولى، وهذا وفْقَ مزاعمِ الأَحبارِ، التي نَتَوَقَّفُ فيها، فلا نُصَدِّقُها ولا نُكَذِّبُها ..

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ رأُوبين ارتكَبَ فاحشةَ الزِّنا، والتي زَنا بها هي سريَّةُ أَبيه يعقوب، ولما علمَ يعقوبُ بذلِك حزنَ وتَكَدَّرَ!

وأَنْ يَزنيَ ابنُ يعقوبَ البكرُ جريمة، وأَنْ تكونَ التي يَزني بها امرأةُ أَبيه

النبيِّ جريمةٌ أَقبحُ وأَشنع.

ولم يَثْبُتْ هذا الفعلُ القبيحُ عندنا في مصادرنا الإِسلامية، والأَحبارُ مُتَّهمون في الرواياتِ والأَخبارِ التي يَذكرونَها، ونحنُ نستبعدُ ارتكابَ ابنِ النبيِّ لتلك الجريمةِ النكراء.

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ عاقبَ بِكْرَهُ رَأُوبين على فاحشةِ الزنا، ونزعَ منه «بَرَكَةَ البكورِيَّة» التي تكونُ في الابنِ البكر .. ويَزعمونَ أَنه أَخْبَرَه بذلك عندما كان على فراشِ الموت، أَمامَ إِخوانه: «ثم دعا يعقوبُ بَنيه وقال: اجْتَمِعوا لأُنَبِّئَكُم بما يكونُ لكم في لاحقِ الأَيام: رَأُوبين: أَنتَ بِكْري، قُوَّتي وأَوَّلُ رُجولَتي. فاضِلٌ في الشُّموخ، فاضِلٌ في العِزّ، فُرْتَ كالماءِ. لَنْ تَفْضُلَ لأَنكَ عَلَوْتَ مضجعَ أَبيك، حينئذٍ دَنَّسْتَ فِراشي عَلَيَّ» [التكوين ٤٩: ١-٤].

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ واصَلَ سَيْرَه نحوَ الجنوب، حتى الْتقى بأَبيهِ إِسحاقَ في أَرضِ كَنْعان، عند بئرِ السبع.

وماتَ إِسحاقُ عن مائةٍ وثمانينَ سنة -على حسبِ زَعْمِ الأَحْبار- ودَفَنَه ابْناهُ يَعقوبُ وعيسو. [التكوين٣٥: ٢٧-٢٨].

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ جنوبَ أَرضِ كنعان ضاقَتْ بعيسو ويعقوبَ بسببِ كثرةِ الماشيةِ والخَدَم، فافْتَرَقا، وبقيَ يَعقوبُ في جنوبِ أَرضِ كنعان، وأَقامَ

بينَ حَبرونَ وبئرِ السبع، وارتحلَ أَخوهُ عيسو شَرْقاً، واستقرَّ في أَرضِ سَعير، وسُميتْ أَرضَ أَدُوم، باسمِه هو، لأَنَّ له اسْمَيْن: عيسو وأَدوم، ومعنى «أَدوم» الأَحْمَر، لأَنه كانَ أَحْمَرَ اللون.

وأَرضُ أَدومَ هي الواقعةُ شرقَ وادي عربة، حتى البحرِ الأَحمر، وفيها أَرضُ البتراء والطفيلة. [قاموس الكتاب المقدس: ٣٩-٤٠].

وهذا زعمٌ نتوقَّفُ فيه، فلا نُصَدِّقُه ولا نُكَذِّبُه.

سيرة يوسف عليه السلام
بين سفر التكوين والقرآن الكريم

خَصَّصَ الأَحبارُ الإِصحاحاتِ الأَخيرةَ من سِفْرِ التكوينِ للحديثِ عن سيرةِ يوسفَ عليه السلام، وهي أَربعةَ عَشَرَ إِصحاحاً، وقد ذَكَروا رواياتٍ وأَخباراً مفصَّلَةً عن ما جَرى له من أَحداث.

وعلينا أَنْ نَنظرَ في أَحداثِ قصتِه الواردةِ في إِصحاحاتِ سِفْرِ التكوينِ من خلالِ منظارِ القرآنِ الكريم، لِنعرفَ الحقَّ والباطلَ في ما أَوردَه الأَحْبار، لأَنَّ الحقَّ هو ما توافقَ مع القرآن، والباطلَ ما تعارضَ معه.

هل ميز يعقوب بين أبنائه؟

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسفَ كان فتىً يَرعى الغنمَ مع إِخوانِه، وكانَ عمرُه سبعَ عشرةَ سنة، وأَخبرَ أَباهُ عن إِخوانِه خَبَراً شَنيعاً! [التكوين ٣٧: ١-٢].

إِنهم يَجعلونَ يوسُفَ جاسوساً، يتجسسُ لأَبيه على إِخوانِه، وينقلُ له ما يَقولُونَه! وهذا فعلٌ لا يَليقُ به ولا بأبيه، فلا يُتَصَوَّرُ من يعقوبِ النبيِّ أَنْ يُوَظِّفَ أَحَدَ أَبنائِه جاسوساً عليهم!

وقد حَدَّدَ الأَحبارُ عُمُرَه بسبعَ عَشْرَةَ سنة، وهذا مردود، لأَنَّ الإِنسانَ في هذه السِّنِّ يكونُ شاباً واعياً، وفتيّاً قويّاً، وكانت بدايةُ مشكلتِه مع

إِخوتِه عندما كان طِفْلاً صغيراً، لعلَّه لم يَصِلْ إلى السنةِ العاشرةِ من عُمره!

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ كان يُحابي يوسُفَ على باقي إِخوتِه، ويحبُّه أَكثرَ منهم. قالوا: «وكان إِسرائيلُ يحبُّ يوسُفَ على جميعِ بَنيه، لأَنه ابنُ شيخوخَتِه، فصنعَ له قميصاً موشّىً. ورأى إِخوتُه أَنَّ أَباهُ يحبُّه على جميعِ إِخوتِه، فأَبْغَضوه، ولم يَستطيعوا أَنْ يكلِّموه بمودَّة» [التكوين٣٧: ٣-٤].

وهذا اتهامٌ منهم للنبيِّ يعقوبَ عليه السلام، وهو اتهامٌ باطل، لأَنَّ المسلمَ مأْمورٌ أَنْ يكونَ عادلاً بينَ أَبنائِه، مَنْهِيٌّ عن المحاباةِ بينَهم، والنبيُّ مُطالبٌ بذلك من بابِ أَوْلى، فمن غيرِ المقبولِ للنبيِّ أَنْ يُميِّزَ بينَ أَبنائِه، فكيفَ يفعلُ ذلك النبيُّ يعقوبُ عليه السلام؟

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ محاباةَ يعقوبَ ليوسفَ أَدَّتْ إلى كُرْهِ وبغضِ إِخوانِه له، حيثُ عادوهُ وحارَبوه، ولم يُعامِلوه بحبّ، ولم يُكَلِّموه بمودَّة..

حقد الإخوة على يوسف:

وقد ذكرَ القرآنُ أَنَّ إِخوةَ يوسفَ حَقَدوا عليه وأَبْغَضوه، وأَوهمتْهم شياطينُهم أَنَّ أَباهم يحِبُّ يوسفَ وأَخاهُ أَكثرَ منهم، قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ﴾ [يوسف: ٧-٨].

قالوا: يوسفُ وأَخوهُ أَحَبُّ إلى أَبينا منّا ونحنُ عُصْبَة.

ولم يَذكر القرآنُ اسْمَ أَخيه، وأَبقاهُ مُبْهَما. بينما يَرى الأَحبارُ أَنَّ أَخاهُ الشقيقَ هو بنيامين، وهو أَصغَرُ أَبناءِ يعقوب، وأَنَّ أُمَّه راحيل، ماتَتْ أَثناءَ ولادتِها له، ودُفنتْ في بيتِ إيل.

والأَوْلى أَنْ نُبقيَ اسْمَ أَخيه مُبْهَماً، لعدمِ تبيينِه في آياتِ القرآن، أَو فيما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ، وهما المصدرانِ الوحيدانِ لتَبيينِ مُبْهماتِ القرآن..

لقد كانَ الإِخوةُ العَشَرَةُ حاقِدين على أَخَوَيْهم، وهم الذين توهَّموا أَنَّ يوسفَ وأَخاهُ أَحَبُّ إلى أَبيهم منهم، وحتى ولو كان ذلك صحيحاً فإنه لم يَنتجْ عنه تمييزُه لهما عنهم بعَطاءٍ أَو مال. فالحُبُّ أَمْرٌ قلبيٌّ، يَقومُ على المشاعرِ والعواطِفِ والأَحاسيس.

إِنَّ المؤمنَ قد يحِبُّ أَحَدَ أَبنائِه أَكثرَ من الآخرين، لنبوغِه أَو تفوُّقِه أَو حَنانِه أَو بِرِّه، وهذا لا شيءَ فيه، بشرطِ أَنْ لا يَقودَ إلى التمييزِ والمحاباة، لأَنَّ الأَبَ مَأمورٌ بالعدْلِ والمساواةِ بين الأَبناء، حتى لو كانَ أَحَدُهم أَحَبَّ إليه من الآخرين!

وقد كانَ الأَبناءُ غيرَ متأَدِّبينَ مع أَبيهم يعقوبَ عندما اتَّهموهُ بالضلال المبين، بسببِ ذلك الحُبّ.

ولا يَصِفُ مسلمٌ أباهُ بأنه في ضلالٍ مبين إلاّ إذا كان عاقّاً له، سيءَ الأَدَبِ معه، يُعاملُه بِجَلافةٍ وغِلْظَة!

ولقد كانَ الأَبناءُ عاقّين لأَبيهم يعقوب، ولذلك وصفُوه بأَنه ضالٌّ، وفي ضلال مبين..

مزاعم الأَحبارَ حول حلمين ليوسف:

وقد زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسُفَ رأى حُلْمَيْن اثْنَيْن، ولما أَخبرَ بهما ازدادَ بغضُ إِخوته له.

قالوا عن الحُلْمِ الأَوَّل: «ورأى يوسُفُ حُلْماً، فلما أَخبرَ به إِخوتَه زادَ بغضُهم له. قال لهم: اسْمَعوا هذا الحُلْمَ الذي رأيتُه، رأَيتُ كأَننا نَحْزِمُ حُزَماً في الحَقْل، فوقَفَتْ حُزْمَتي بغتةً وانتصبَتْ، ثم أَحاطتْ بها حُزَمُكُم وسجدَتْ لها!!

فقالَ له إِخوتُه: أَتظنُّ أَنك تملكُ وتتسلَّطُ علينا.. وازدادَ بغْضُهم له بسببِ أَحلامِه وكلامِه..» [التكوين٣٧: ٧-٨].

ولا نَدري ما هو دليلُ الأَحبارِ على هذا الحُلْمِ الذي نَسبوهُ ليوسُفَ الشابّ؟ ما هو إِلاّ زَعْمٌ من مزاعِمِهم العديدة، التي ذَكَروها في سِفْرِ التكوينِ بدونِ دليل. ونحنُ نتوقَّفُ في هذا الأَمر، فلا نصدِّقُه ولا نكَذِّبه..

وقالوا عن الحُلْم الثاني: «ورأى حُلُماً آخَرَ، فقصَّه على إِخوتِه، قال: رأيتُ حُلُماً آخر: كأَنَّ الشمسَ والقمرَ وأَحَدَ عشر كوكباً ساجدةً لي.

ولما قصّه على أَبيه وإِخوتِه، وبَّخَهُ أَبوه، وقال له: ما هذا الحُلْمُ الذي رأَيتَه؟ أَتُرانا نَأْتي أَنا وأُمُّك وإِخواتُك فنسجدُ لك إِلى الأَرض؟ فَحَسَدَهُ إِخوتُه، وأَما أَبوه فقد حفظ هذا الكلامَ في قلبِه..» [التكوين٣٧: ٩-١١].

رأى يوسفُ عليه السلام كأَنَّ الشمسَ والقمرَ وأَحَدَ عَشَرَ كوكباً ساجِدينَ له، فأَخبرَ أَباهُ وإِخوتَه بما رأى، فلامَه أَبوه وَوبَّخَه عليه، وازدادَ إِخوتُه حَسَداً له وحِقْداً عليه!

رؤيا يوسف بين زعم الأحبار وعرض القرآن:

لقد خَلَطَ الأَحبارُ في حديثِهم عن الحُلْمِ الثاني الحَقَّ بالباطل، أَيْ أَنَّ بَعضَ ما قالوه صحيح، وبعضَه خَطَأ، ولا نُميِّزُ بين الصحيحِ والخطأ فيه إِلا بالنظرِ إِليه من خلالِ القرآن.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ

وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف: ٤-٦].

إنَّ الصوابَ هو ما وردَ في حديثِ القرآنِ عن رؤيا يوسف، لأَنه هو الحقُّ والصدق.

ويَظهرُ الفرقُ بين روايةِ الأَحبارِ المدخولةِ المحرَّفَة وحديثِ القرآنِ الصحيح في النقاطِ التالية:

١-اعْتَبَرَهُ الأَحبارُ الحُلْمَ الثاني ليوسُفَ، بينما لم يذكُر القرآنُ أَنه رأى غيره في المنام.

٢-سَمَّاهُ الأَحبارُ حُلْماً، بينما سَمَّاهُ القرآنُ رُؤْيا، والحُلْمُ قد يكونُ من الشيطان، لكنَّ الرؤْيا لا تكونُ إلاّ من الله.

٣-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسُفَ قصَّ حُلْمَه على إخوتِه، فازدادَ حَسَدُهم له، وحقْدُهم عليه. بينما ذكَرَ القرآنُ أَنَّ أَباهُ نهاهُ عن قَصِّ رؤياهُ على إخوتِه، فالتزمَ يوسفُ بتوجيهِ أَبيه، ولم يَقُصَّها عليهم.

وسببُ نهيه عن ذلك، كي لا يَزيدَ حقدُهم عليه وكيدُهم له: ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ ﴾ وهذا مَعْناهُ أَنَّ أَباه يعلمُ كيدَ إِخوتِه ضدَّه، وذلك للؤْمِهم وسوءِ ظنهم، وقبحِ فعْلِهم..

٤-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ أَباهُ لامَه ووبَّخَه لَمَّا أَخبَره بحُلْمِه، وغارَ منه وحَقَدَ عليه كإِخوته، وقال له: أَنجيءُ أَنا وأُمَّك وإِخوتُك فنسجدُ لك؟ ما هذا الحُلْم؟

تناقض وخطأ الأحبار في الحديث عن حلم يوسف:

وهذا الزعمُ قادَهم إِلى الوقوعِ في الخطأ والتناقض، فظهرَ من اعتراضِ أَبيه عليه أَنَّ أُمَّه ما زالَتْ حية .. بينما زَعَموا أَنَّ أُمَّهُ راحيل ماتتْ أَثْناء ولادتِها لأَخيهِ بنيامين، ودُفنتْ عند بيتِ إِيل. قالوا في الإِصحاحِ الخامسِ والثلاثين: «وماتَتْ راحيل، ودُفنتْ في طريقِ أَفراته -بيت لحم- ونَصَبَ يعقوبُ نُصُباً على قبرِها..» [التكوين٣٥: ١٩-٢٠].

فإذا كانتْ أُمُّه ماتَتْ قبلَ سنوات، فكيفَ يقولُ له أَبوه: أَنجيءُ أَنا وأُمُّك وإِخوتُك فنسجدُ لك؟

إِنَّ هذا التناقضَ بين الأَخبارِ، يدلُّ على أَنَّ الأَحْبارَ هم الذين أَلَّفوا سِفْرَ التكوين، ولو كان سِفْرُ التَكوينِ من عندِ اللهِ لما وَقَعَ فيه هذا التناقض!

وقد أَخبرَ القرآنُ أَنَّ يعقوبَ عليه السلام سُرَّ برؤْيا ابنِه، وأَثْنى عليه، واستشرفَ له مستقبلاً عظيماً، وربَطَهُ بالله، وطالَبه بالتوكُّلِ عليه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾.

فَرْقٌ بعيدٌ بين موقفِ يعقوبَ من رؤيا يوسفَ الذي ذكَره الأَحْبار، وموقفِه منها الذي أَخبرَ عنه القرآن! وهذا الفرقُ البعيدُ يقدمُ شهادةً أُخرى للقرآنِ بأنه كلامُ الله، فلو كان هذا القرآنُ من تأليفِ محمد ﷺ، لأَخَذَ رواياتِ الأَحبارِ في سِفْرِ التكوين كما هي، ولم يُخالفْها!

اخوة يوسف يضعونه في البئر:

فَصَّلَ الأَحبارُ القولَ في تآمُرِ إِخوةِ يوسفَ عليه، بحيثُ أَلْقوهُ في البئر.

قالوا: «ومضى إِخوتُه ليرعُوا غَنَمَ أَبيهم عند شَكيم. فقالَ إِسرائيلُ ليوسُفَ: إِخوتُك يرعونَ الغَنَمَ عند شَكيم، فتَعالَ أُرسلْك إِليهم، اذهبْ وانظرْ كيفَ حالُهم وحالُ الغنم، وائْتِني بالخَبَرِ.

أَرسَلَه من وادي حَبْرون، وجاءَ إِلى شَكيم، وصادَفَه رجلٌ وهو تائِهٌ في البَرِّيَّةِن فسأَله: ماذا تَطْلُب؟ قال: أَطلبُ إِخوتي، أُريدُ أَنْ أَعرفَ أَينْ يَرعون. فقالَ له: رَحَلوا من هنا، وسمعتُهم يقولون: نذهبُ إِلى دُوثان. فتوجَّهَ إِليهم في دُوثان.

فلما رأَوْه عن بُعْد، وهو يَقتربُ منهم تآمَروا ليَقْتُلوه، فقال بعضُهم لبعض: ها هو صاحبُ الأَحلامِ مُقبلٌ نحوَنا، تَعالوا نقتُلْه ونطرَحْه في بئر، ونقول: وحشٌ شرسٌ افترسَه، ونرى ماذا تنفَعُه أَحلامُه!

فقالَ لهم رأوبين: لا تَسفِكوا دَمَه، واطْرَحوه في هذه البئرِ التي في

الحَقْل، ولا تَرفَعوا أَيديكم عليه!

ومُرادُه من هذا القولِ أَنْ يُنقِذَه من أَيْديِهم، ويُعيدَه إلى أَبيه. ولما وَصَلَ يوسفُ إِليهم نَزَعوا عنه القميص الملَوَّنَ الذي يلبَسُه، وأَخَذوه وطَرَحوه في البئر .. وكانت البئر فارغةً لا ماءً فيها .. ثم جَلَسُوا يَأْكُلون..» [التكوين٣٧: ١٢-٢٥].

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِخوةَ يوسفَ توجَّهوا بالغَنَم لِيرعَوها، من حَبْرونَ في الجنوبِ إِلى شكيمَ في الشمال، وحَبْرونُ هي الخليل، وشَكيمُ هي نابلس، والمسافَةُ بينَهما طويلة، ثم انْتَقَلوا من شَكيمَ إِلى دُوثانَ في الشمال، ودوثانُ جنوبَ جنين.

وهذا زَعْمٌ ليس عليه دَليل، ولا داعيَ لسيرِ الإِخوةِ الرُّعاةِ من بئرِ السبع في الجنوب، إِلى القربِ من جنينَ في الشمال.

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ هو الذي أَرسلَ يوسُفَ وحيداً لَيستطلِعَ أَخبارَ إِخوته، وأَنهم أَرادوا قَتْلَه، ولكنَّ الكبيرَ رَأوبين هو الذي نهاهم عن ذلك، فاتَّفقوا على إِلقائِه في البئرِ عند دوثان.

حديث القرآن عن إلقاء يوسف في البئر:

وهذا الزعمُ منهم يتعارضُ مع ما وردَ في القرآنِ عن هذا المشهد، قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝ إِذْ قَالُواْ

لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف: ٧-١٥].

أَخْبَرَ القرآنُ أنَّ الإخوةَ حَقَدوا على يوسُفَ وأَبْغَضوه، لأنهم زَعَموا أنه أَحبُّ إلى أبيهم منهم، وأنَّ أباهم يُميِّزُه عنهم .. لذلك تآمروا عليه، وفَكَّروا في كيفيةِ التخلصِ منه.

جَلَسوا جِلسةً خاصة، وهم عندَ أبيهم في مكانِ إقامتِه، وليس في شَكيم أو دُوثان كما زَعَمَ الأَحْبار، وتَدارسوا أَمْرَه فيها، فَطَرَحَ بعضُهم فكرةَ قتْلِه، وطَرَحَ آخَرون فكرةَ إخراجِه وإبعاده: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾.

واعترضَ أَحَدُهم على قتْلِه، ووافقَ على إبعادِه: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا

تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾.

والجُبُّ هي البِئْر. وغَيابَةُ الجُبِّ: هو ما غابَ من البِئْر، وهو قَعْرُها المظلمُ الذي لا يُرى من بابها، ويَغيبُ عن الأنظارِ مَنْ كانَ فيها.

وهذا المعترضُ على قتْلِه واحدٌ من الإخوة، أَبهمه القرآنُ إِبهاماً مقصوداً، فلا تَعْنينا معرفةُ اسْمِه، لأَنه لا فائدةَ من ذلك، وتَحديدُ الأَحبارِ بأنه رَأُوبين أَخوهم الأَكبر، زَعْمٌ ليسَ عليه دليل.

وتدلُّ جملةُ: ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ على أنه بِئْرٌ خاصٌ، مَعروفٌ لهم وللآخَرين، وأَنَّ هذا البئْرَ على طريقٍ تجاريٍّ مَطْروق، تَمُرُّ به القوافلُ التجاريةُ السيّارة، السائرةُ في المنطقة، والمتنقلةُ بين الشامِ ومصر.

وانتهتْ جلستُهم السريَّةُ الخاصَّةُ باتفاقِهم على إلقاءِ يوسفَ في غَيابةِ الجُبِّ. وقالَ اللهُ في آخرِ سورةِ يوسفَ عن هذا الاجتماع: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[يوسف: ١٠٢].

أَيْ: يا محمد! لم تكنْ معهم عندما اجْتَمَعوا فيما بينَهم، وتَدارسوا أَمْرَ

يوسُف، وأَجْمَعوا أَمْرَهم على إلقائِه في غيابةِ الجُبِّ، فَمَنْ أَدراكَ يا محمد بذلك الاجتماعِ الخاصّ؟ إنَّ اللهَ هو الذي أَوحى إليك به.

اخوة يوسف يخادعون أباهم:

وانتقَلَ الإِخوة الماكرونَ المتآمِرونَ من مرحلةِ التفكيرِ والتخطيطِ إلى مرحلةِ التنفيذ.

إنَّ أباهم يَعلمُ حِقْدَهم على يوسف، وكيْدَهم له، وقد سبقَ أَنْ حَذَّرَهُ من ذلك: ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ ولم يكنْ يأْمَنُهم عليه.

فأَكَّدوا له حرصَهم عليه، وتحقيقَهم لمصلحتِه، واهتمامَهم به: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾.

بدأُوا كلامَهم مع أَبيهم بالإِنكارِ عليه، لأَنه لا يأْمَنُهم على يوسف. إنَّه أَخوهم الصَّغير، وهم حَريصونَ عليه، فلماذا لا يَأْمَنُهم عليه؟ هل هم أَعداؤُه؟

وقد صَدَّقَ تسلسلُ أَحداثِ القصة فيما بعد ظَنَّ يعقوبَ في عدمِ ائتمانِهم عليه!

رَجَوْا أَباهم أَنْ يُرسلَ أَخاهُم معهم غداً، لِيَرتعَ ويَلعبَ ويَلهوَ ويَعْبَث، كما يفعلُ باقي الأَطفالِ في الحقولِ والمراعي، يَسْرَحون ويَمْرَحون ويَلْعَبون، وسيكونُ تحتَ نظرِهم المباشر.

وأَكَّدوا كَلامَهم بعدةِ مُؤَكِّدات، في جملَتَيْن متتابعتَيْن: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ و ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

كلُّ هذا الاهتمامِ والحرصِ والتأكيد، وهم مُتَّفِقون فيما بينَهم على التخلُّصِ من يوسُفَ بإِلقائِه في غَيابةِ الجُبِّ!! فماذا تَقولُ في هؤلاءِ الإِخوةِ الماكرين الحاقدين المتآمرين؟؟

ويَعقوبُ عليه السلام لا يَأْمَنُهم على يوسُف، فماذا يفعلُ أَمامَ تأكيداتِهم التي لم يُصَدِّقْها؟ أَبْدى لهم تخوُّفَه من أَنْ يأكلَه الذِّئب: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾.

أَخْبَروهُ أَنَّ تَخَوُّفَه في غيرِ مكانِه، فكيفَ سيأكُلُه الذئبُ وهم معه، حافِظون له؟ ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾.

وإِنَّ ما قالَه القرآنُ عن تآمُرِ الإِخوةِ على يوسف هو الحقُّ والصواب، وإِنَّ ما خالَفَه من مزاعمِ الأَحبارِ باطلٌ مردود.

وهذا مَعْناهُ أَنَّ الإِخوةَ لم يَذْهَبوا للرعْيِ إِلى شَكيم أَو دوثان، ولم يطلبْ يعقوبُ من يوسفَ أَنْ يلحقَ بهم، وإِنما هم تآمَروا عليه أَوَّلاً،

وطَلَبوا من أَبيهم إِرسالهَ معهم، مؤكّدين حِفْظَهم له، فوافَقَ أَبوه على ذلك مُكْرَهاً.

إلقاء يوسف في البئر:

ولما أَخذوهُ معهم، وأَوْقَفوهُ على بابِ البئر، نَفَّذوا ما أَجْمَعوا عليه بوحشيةٍ وحقْد، ولْنتصوَّرْ طِفْلاً صَغيراً بَريئاً، في صحبةِ عشرةٍ من إِخوتِه الرجالِ الكبار، يَمشي معهم وهو مطمئِنٌّ آمِنٌ، لأَنه مع إِخوتَه، إِذا به يُفاجَأُ بِغدْرِهم ومكْرِهم، فهاهم يَهْجُمونَ عليه، ويُجَرِّدونَه من قميصِه، ويُلْقونَه في غَيابَةِ الجُبِّ، ويَضَعونَه في قَعْرِ البئر .. ولْنَتصوَّرْ حُزْنَه وبكاءَه ومشاعِرَه، وهو في ذلك المكانِ المظلم، وإِخوانُه يتفرَّجونَ عليه على فَم البئْر، لا يَرْحَمون دموعَه وتوسُّلاتِه!!

وأَوحى اللهُ إِلى الطفلِ في قعْرِ البئر وحْياً خاصّاً، بأَنه معه، وأَنه سيكبَرُ، ويُخبرُ إِخوتَه بهذا الفعلِ القبيح، ويُذَكِّرُهم به وهم لا يَشْعُرون، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وقد زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ البئرَ كانتْ بدونِ ماء: «وأَخذوهُ وطَرَحوهُ في البئر وكانت البئرُ فارغةً لا ماءَ فيها».

وهذا زَعْمٌ ليس عليه دليل، بل الراجحُ عكْسُه، وهو أَنه كانَ فيها ماء،

بدليلِ أَنه لما جاءتْ قافلةٌ تجارية، أَرسلوا واردَهم لأَخْذِ الماء من البئر.

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٌ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ ﴾ [يوسف: ١٩].

أَدْلى الواردُ دلْوَه في البئرِ ليستقيَ منها الماء، ولو لم يكنْ بها ماءٌ لما جاءَها هذا الوارِد، ولكنه لما أَخرجَ دلْوَه من البئرِ رأى الطفلَ، فاستبشرَ قائلاً: ﴿ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ ﴾!!

التجار: إسماعيليون أو مديانيون:

ماذا حَصَلَ بعدما وَضَعوا يوسفَ في غيابةِ الجُبّ؟

تابعَ الأَحبارُ في الإِصحاحِ السابع والثلاثين سَرْدَ الأَحداثِ وفقَ نظرتِهم ومزاعِمهم.

قالوا: «..ثم جَلَسوا يأْكُلون ورَفَعوا عيونَهم، فرأَوا قافلةً من الإِسماعيلِيّين مقبلةً من جِلْعاد، وجِمالُهم مُحَمَّلَةٌ صَمْغاً وبَلْسَماً ومُرّاً، وهم في طريقِ نزولِهم إِلى مصر.

فقالَ يهوذا لإِخوتِه: ما الفائدةُ من أَنْ نقتُلَ أَخانا ونُخفيَ دَمَه؟ تَعالوا نَبيعُه إِلى الإِسماعيلِيّين، ولا نرفعُ أَيدينا عليه، فهو أَخونا من لَحْمِنا ودمِنا .. فسمعَ له إِخوتُه ..

ومَرَّ تُجارٌ مِدْيانيّون، فأمسكوا بيوسُف، وأَصْعَدوه من البئر، وباعوهُ للإِسماعيليّين بعشرينَ من الفِضَّة، فجاءوا به إِلى مصر..

ورجعَ رَأُوبين إِلى البئر، فإذا يوسُفُ ليسَ في البئْر، فَمَزَّقَ ثيابَه، ورجعَ إِلى إِخوتِه، وقالَ لهم: الولَدُ غيرُ موجود، وأَنا إِلى أَينَ أَذهب؟..» [التكوين٣٧ : ٢٥-٣٠].

إِنَّ روايةَ الأَحبارِ للأَحداثِ متعارضةٌ ومتناقضة، وغيرُ واضحة.

لقد زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِخوةَ يوسُفَ أَلْقوهُ في البئر، ثم جَلَسوا على حافَّةِ البئر يأكلون، ورأَوا من بعيدٍ قافلةً تجاريةً قادمةً من جِلْعاد، وجِلْعادُ شرقَ نهرِ الأُردن، وكان التجارُ إِسماعيليّين. أَيْ: من أَولادِ إِسماعيلَ بنِ إِبراهيمَ عليهما السلام.

وزَعْمُ الأَحبارِ أَنَّ التجارَ من أَولادِ إِسماعيلَ غيرُ صحيح، لأَنَّ إِسماعيلَ عليه السلام عاشَ وماتَ في مكة، وأَولادُه في مكة، ومن غيرِ المعقولِ أَنْ يأتيَ الإِسماعيليّون تُجاراً إِلى مصرَ عن طريقِ بلادِ الشام!

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِخوةَ يوسفَ الجالسين على حافَّةِ البئرِ اتَّفقوا على أَنْ يَبيعوا يوسُفَ لهؤلاء الإِسماعيليّين. وبعدَ ذلك أَخْبَروا أَنَّ الذين مَرّوا تُجّارٌ مَدْيانِيّون، وأَنَّ هؤلاء المديانيّين انْتَشَلوا يوسُفَ من البئر، وباعوهُ

للإِسماعيليّين بعشرين من الفضة، وأَخَذَه الإِسماعيليّون إِلى مصر. ولما رجعَ رَأُوبين إِلى البئر -ولم يُخبِرْنا الأَحبارُ أَينَ كان- ولم يَجدْ يوسُفَ في البئر، مَزَّقَ ثيابَه وأَخبرَ إِخوتَه!

تناقض الأَحبار في الحديث عن بيع يوسف:

مَن الذين أَخرجوا يوسُفَ من البئر؟ تناقَضَ الأَحبار! فقالوا مَرَّة: إِنهم إِخوتُه. وقالوا مرةً أُخرى: إِنهم المِدْيانيّون، أَخْرَجوه من البئرِ في غيبةِ إِخوتِه!

ومَن الذينَ باعوهُ للإِسماعيليّين التّجار؟ تَناقَضَ الأَحبار! فَقالوا مَرَّة: إِنهم إِخوتُه، بناءً على نصيحةِ يَهوذا. وقالوا مَرَّةً أُخرى: إِنهم المديانيّون في غيبةِ رَأُوبين!

وهكذا نجدُ روايتَيْن متعارضَتَيْن في إِخراجِ يوسفَ من البئرِ وبيعِه.

الأُولى: أَمَرَ يهوذا إِخوتَه بعدمِ قتْلِه، وبيعِه للإِسماعيليّين القادمين، فأَخرجَه إِخوتُه من البئر وباعوهُ للإِسماعيليّين، وتوجَّهوا به إِلى مصر.

الثانية: نَهى رَأُوبين إِخوتَه عن قتْلِ يوسُف، واقترحَ عليهم طرحَه في بئرٍ فارغةٍ من الماء، فَفَعَلوا، وهَدَفُه من ذلك أَنْ يَعودَ إِلى البئرِ بعدَ ابتعادِ إِخوتِه

عنه، ثم يُخرجَ أَخاه منه، ويُعيدَه إِلى أَبيه.

وفي غيبةِ رَأُوبين جاءَ تجارٌ مِدْيانيّون، وأَخْرَجوا يوسُفَ من البئر، وباعوهُ للإِسماعيليّين بعشرينَ من الفضة. ثم جاءَ رَأُوبين لإِخراجِ أَخيه، ولما لم يجدْه مَزَّقَ ثيابَه وأَخبرَ إِخوتَه!!

وقد شَعَرَ الرُّهبانُ أَثناءَ ترجمتِهم لسِفْرِ التَّكوينِ بهذا التناقضِ بين الروايتَيْن، فدمَجوا بينهما، وهذا الدمجُ زادَ الكلامَ خَلْطاً وغُموضاً واضطراباً، وعَلَّقوا في الهامشِ على ذلك بقولهم: «نلاحِظُ هنا دَمْجاً للمصدرِ الإِيلُوهيِّ والمصدرِ اليَهَويّ .. يُفيدُ الأَولُ أَنَّ بني يعقوبَ أَرادوا قَتْلَ يوسف، فعرضَ عليهم رَأُوبين أَنْ يُطْرَحَ في البئرِ فَقط، راجياً أَنْ ينتشلَه فيما بَعد، لكنَّ تُجّاراً من مَدْيَنَ مَرّوا بذلك المكانِ دونَ معرفةِ إِخوتِه، وأَخَذوا يوسُفَ وذَهبوا به إِلى مصر.

ويُفيدُ المصدرُ الثاني أَنَّ بَني إِسرائيل أرادوا قَتْلَ يوسُفَ، فاقترحَ عليهم يهوذا أَنْ يَبيعوهُ لقافلةِ إِسماعيليّين ذاهِبين إِلى مصر..» [العهد القديم: ١٢٦، حاشية: ٥].

وإِنَّ هذا التناقُضَ في الكلامِ يدلُّ على أَنه من تأْليفِ الأَحبار، وليس كلامَ اللهِ أَنزلَه على موسى عليه السلام، فلو كانَ من كلامِ الله لما كانَ متعارِضاً متناقضاً مختلفاً قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

فإذا كانَ كلامُ اللهِ متوافقاً، فإنَّ كلامَ غيرِ اللهِ متفاوتٌ مختلفٌ متناقض، وبما أنَّ الكلامَ عن بيعِ يوسُفَ متعارضٌ مختلف، فهو كلامُ الأحبارِ وليس كلامَ الله!

حديث القرآن عن بيع يوسف:

ولما أخبرَ القرآنُ عن بيعِ يوسفَ أشارَ إلى ذلك إشارةً مجملة. قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٩-٢٠].

وَضَعَ الإخوةُ يوسُفَ في البئرِ، ليلتقِطه بعضُ السيارة، ولما استقرَّ يوسُفُ في البئرِ، أوحى اللهُ إليه أنه سينبئُهم بأمْرِهم هذا في المستقبلِ، وهم لا يَشعرون.

ويبدو أنَّ الإخوةَ غادَروا منطقةَ البئر، وعادوا إلى أبيهم في وقتِ العشاء، وتركوا يوسُفَ في البئر.

وبعدَ مغادرةِ الإخوةِ جاءَتْ قافلةٌ تجاريّة، أطلقَ القرآنُ عليها اسْمَ

«سَيّارة» ، والسيارةُ هم القومُ المسافرون ، الذين يَسيرون معاً.

وكان هؤلاءِ السَّيّارةُ يعرفونَ البئرَ وما فيه من ماء. وكان لهم أَفرادٌ قلائل ، يَسبقونَهم إلى الماء ، لِيَرِدُوه ويُجَهِّزُوه ويُهَيِّئوا الماء ، لِتشرب دوابُّهم ومواشيهم ، وأَطلقَ القرآنُ على هؤلاءِ «وارِد» ، لأنهم يَرِدُونَ الماءَ قبلَ جُموعِ السيارةِ المسافرين.

ووقَفَ هؤلاءِ الوارِدونَ على حافَّةِ البئر ، وأَدْلى أَحَدُهم دَلْوَهُ في البِئر ، ولما أَخرجَه وجدَ يوسُف ، ففرحَ واستبشَر ، وأَخبرَ الذين معه ، فاتّفقوا على أَنْ يَحتفظوا به ، ويُخفوهُ عن باقي السيارَة ، لِيَبيعوهُ ويَجعلوا ثَمَنَه فيما بينَهم : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

فالذي أَدْلى دَلْوَهُ هو أَحَدُ الوارِدِين على البئر ، وهو الذي فَرِحَ عندما رأى يوسُف ، وقال: يا بُشرى هذا غلام .. والذين أَسَرّوا يوسُفَ بضاعةً هم هؤلاء الوارِدون القلائل ، أَخْفَوْه عن إِخوانهم الآخرين أَعضاءَ السيارة.

وهذا معناهُ أَنهم لم يَشْتَروا يوسف من إِخوتِه ، لأَنَّ إِخوتَه غادَروا البئرَ قبلَ وصولِ هؤلاءِ الواردين بفترة ، وبقيَ يوسُفُ في البئرِ وحْدَه ، فترةً من الزمن ، اللهُ أَعلمُ بمدَّتِها !!

ولما وَصلت السيارةُ إلى مصر سارَعَ هؤلاء الوارِدون القلائلُ ببيعِ يوسفَ في مِصر. وهذا ما أَخْبَرَ عنه قولُه تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ ﴾.

معنى: «شَرَوْهُ»: باعوه.

وتدلُّ الآيةُ على أَنَّ هؤلاء الوارديِنَ كانوا زاهِدين في يوسُف، وكانوا حريصين على بيعِهِ بأَسرعِ وَقْت، لأَنهم أَسَرّوهُ بضاعة، ولذلك باعوهُ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودَة.

ولم يُحَدِّد القرآنُ الثمنَ الذي باعوا يوسفَ به، واكتفى بالإشارةِ إلى قِلَّتِه، وكلُّ كلمةٍ في الآيةِ تدلُّ على قِلَّتِه: ﴿ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ وتحديدُ الأَحبارِ له بأنه كان عشرينَ درهماً من الفِضَّة، زعْمٌ ليس لهم عليه دليل!!

حزن يعقوب على يوسف:

ماذا حصل بعدَ بيعِ يوسف؟ -على اختلافٍ في الذينَ باعوه- رَجَعَ الإِخوةُ إلى أَبيهم.

قالَ الأَحبار: «أَخذوا قَميصَ يوسُف، وذَبَحوا تَيْساً من المعِز، وغَمَسوا القميصَ في الدم، وأَرسلوا القميصَ الملوَّنَ إلى أَبيهم، وقالوا: وَجَدْنا هذا.

فتحقَّقْ أَقميصُ ابنِك هذا أَمْ لا؟ فتحقَّقَه، وقال: قميصُ ابني، وَحْشٌ شَرِسٌ أَكَله، مزَّقَ يوسُفَ تمزيقاً..

وشَقَّ يعقوبُ ثيابَه، ولَبِسَ المِسْحَ حِداداً على ابْنِه، وناحَ أياماً كثيرة، وقامَ جميعُ بَنيه وبَناتِه يُعَزّونَه، فأَبى أَنْ يتعزَى، وقال: بل أَنزلُ إلى عالم الأَمواتِ نائحاً على ابني..» [التكوين٣٧: ٣١-٣٥].

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِخوةَ يوسُفَ غادروا المنطقة، وعادوا إلى أَبيهم، وحَتّى يُقْنِعوه بافتراسِ وحشٍ لابنِه ذَبَحوا تَيْساً من الغَنَم، وغمسوا قميصَ يوسفَ به، وقَدَّموا القميصَ إليه، فَعَرَفَ أَنه قميصُ ابنِه، وصَرَّحَ بأَنَّ وَحْشاً شرِساً افترسَ يوسفَ افتراساً.

وزَعَموا أَنَّ أَثَرَ الحادثِ على يعقوبَ كان كبيراً، حيث حَزِنَ حُزْناً شديداً، وبكى بكاءً مُرّاً، ومَزَّقَ ثيابَه حُزْناً، ورفضَ أَنْ يتعَزّى أَو يَصبر، وقال إِنني سأَبقى حزيناً عليه إلى أَنْ أَموت!!

وما نَسَبَهُ الأَحبارُ إلى يعقوبَ يتعارضُ مع شخصيتِه الإيمانية، وكأَنهم نَسُوا أَنه نبيٌّ من أَنبياءِ الله، وأَنه مؤمنٌ بالله، راضٍ بقَدَرِه، صابرٌ على ابتلائِه، ولذلك لم ييأَسْ أَوْ يَقنط .. ثم إِنَّ تمزيقَ الثيابِ تصرُّفٌ سفيهٌ، لا يَصدُرُ إلاّ عنْ سفهاءِ الرجال، ويعقوبُ النبيُّ الحكيمُ عليه السلام مُنَزَّهٌ عنه!

وقد أَخبرَ القرآنُ عن معرفةِ يعقوبَ بما جرى ليوسُفَ عليهما السلام،

وأَثَرِ ذلك عليه. قال تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٦-١٨].

جاءَ الإِخوةُ إلى أَبيهم يعقوبَ عِشاء، وهذا يدلُّ على أَنَّ البِئرَ الذي أَلْقَوْا يوسُفَ فيه كان قَريباً من إقامةِ يعقوب، حيثُ أَخَذوا أخاهم في الصَّباح، وعادوا إلى البيتِ في المساء، وهذا ينقضُ كلامَ الأَحبارِ بأَنَّ البئرَ كان في دوثان جَنوبَ جنين.

ولعلَّهم اختاروا وقتَ العِشاءِ للدُّخولِ على أَبيهم، للتَّمويهِ عليه، فالظلامُ يُخفي المشاعرَ والانفعالاتِ على ملامحِ وقَسَماتِ الوُجوه، وهم مُمثِّلون مُتَحايلون، يُحاولونَ إظهارَ الحزنِ على أَخيهم، وحتى لا تُكَذِّبَهم قَسَماتُ وجوهِهم اختاروا العِشاءَ والظلام، ولذلك كانوا يَبْكون، مُظْهِرين الحزنَ على أَخيهم!!

وبكاؤُهم الكاذبُ يدلُّ على لُؤْمِهم وخُبثِهم وتَحايُلِهم، وتوظيفِهم المشاعرَ والعواطفَ الإِنسانيةَ لإِخفاءِ جريمتِهم، فالأَصْلُ في البكاءِ أَنْ يكونَ صادقاً، صادراً من القلب، ومُعَبِّراً عن الحزنِ الحقيقيِّ، لا أَنْ يكونَ

بكاءً تمثيلياً!!

كذب الأبناء على أبيهم:

وانتقل الرجالُ من الكذبِ في البكاءِ إلى الكذبِ في الإخبارِ والكلام، وفي تقديمِ التقريرِ عن ما جرى، فأخبروا أباهم أنَّهم أرادوا أَنْ يَلْعَبوا، ويَتَسابَقوا في الجَرْي، فوضَعوا مَتاعَهم، وتَركوا يوسُفَ عنده، ثم راحوا يَتَسابقون ويَرْكُضون .. وذَهَبوا في الجري بَعيداً .. ومن بعيدٍ نَظروا إلى يوسف، فإذا بالذئبِ يهجمُ عليه ويفترسُه فوراً .. ولم يتمكَّنوا من إنقاذِه لبُعْدِهم عنه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

وهم يَعلمون أنهم كاذبون، ويَعلمونَ أَنَّ أَباهم لا يُصَدِّقُهم، ولذلك صارَحوه بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وحتى يُقَدِّموا الدليلَ على صِدْقِهم، وأَنَّ الذئبَ أَكَلَ يوسفَ، قَدَّموا القميصَ ليعقوبَ وعليه دمٌ كذبٌ. قال عنه القرآن: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

وكان كلامُ القرآنِ عنه مُجْمَلاً، حيثُ اكْتَفى بوصْفِه بأنه دمٌ كَذِبٌ، والأَصلُ الاكتفاءُ بهذه الإِشارةِ القرآنيةِ المجملة، ولا داعيَ لتفصيلِ الدَّمِ بأنه

دمُ تَيْسٍ مَعِزٍ مَذْبوح، كما زَعَمَ الأَحبار المولَعون بالتفاصيل، التي ليس عليها دَليل..

وقد زَعَمَ الأَحْبارُ أنه لما رأى الدَّمَ قال: وَحْشٌ مفترسٌ أَكَلَ يوسف. وهذا غيرُ صحيح، فقد أَخبرَ القرآنُ أنه قال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ وهذا معناهُ أَنه لم يُصَدِّقْهم في تقريرِهم وفي دليلِهم، واعْتَبَرَهم متآمِرين كاذِبين، ونفوسُهم الخبيثةُ سَوَّلَتْ وزَيَّنَتْ لهم التآمُرَ على أَخيهم، فلم يأكُلْه الذئبُ، وهذا الدمُ على قميصِه دَمٌ كَذِب!

صبر يعقوب الجميل:

واللافتُ للنَّظرِ أَنَّ يعقوبَ عليه السلام لم يُناقِشْ أَبناءَه ويُجادِلْهم، ولم يُحاكِمْهم ويُعاقبْهم، واكتفى بالإِشارةِ لهم إِلى كَذِبِهم، وأَنَّ نفوسَهم سَوَّلَتْ لهم ارتكابَ جريمةٍ بحقِّ أَخيهم!! ولعلَّه يَعلمُ أَنه لا ينفعُ معهم اللومُ والعتاب، ولا التوبيخُ والعقاب، لا سيما أَنه حَصَلَ ما كان يتوقَّعُه، وتآمَروا على أَخيهِم، فالأَفضلُ إِهمالُهم.

أَما أَثَرُ فَقْدِ يوسفَ على أَبيه، فقد أَخبرَ عنه القرآنُ بقوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

صَبَرَ يعقوبُ صبراً جميلاً، واستعانَ باللهِ على جريمةِ أَبنائه، وعلى

كذبِهم في ما يَصفونَه ويَقولونَه .. ومعنى صَبْرِه أنه لم ييأسْ ويقنطْ، ولم يَصرخْ ويَسخطْ.

وهذا يُكَذِّبُ مزاعمَ الأَحبارِ بأَنه مَزَّقَ ثيابَه، وواصَلَ بكاءَه وحُزْنَه، ورفضَ قَبولَ العزاءِ فيه!!

وإِنَّ القرآنَ يُخبرُ عن يعقوبَ عليه السلام بما يتفقُ مع إِيمانِه ونبوَّته، ورِضاهُ بقدَرِ ربِّه، واستعانتِه به، وصبرِه الجميلِ على ابتلائِه..

هل زنا يهوذا بكنته؟

خَصَّصَ الأَحبارُ الإِصحاحَ الثامنَ والثلاثينَ للحديثِ عن يَهوذا -أَحَد أَبناءِ يعقوب- وزواجِه من امرأةٍ كنعانية، وزناهُ بامرأةِ ابنِه الذي مات!

زَعَموا أَنَّ يهوذا فارقَ إِخوتَه، الذينَ يُقيمونَ في منطقةِ بئرِ السبع مع أَبيهم، وذَهَبَ إِلى رجلٍ كَنْعاني عَدُلاّمِيّ اسْمُه حَبْرَة، وأَقامَ عند الكنعانيين، وتزوَّجَ امرأةً كنعانية، وأَنجبَ منها ثلاثةَ أَبناء: عِير، وأُونان، وشيلَة.

ولما كَبُرَ ابنُه البكْرُ عيرُ زَوَّجَهُ امرأةً كنعانيةً اسْمُها «ثامار»، وكان عِيرُ رَجُلاً شِرّيراً، فأَماتَهُ اللهُ في شبابه.

وفي الأَعرافِ اليهوديةِ يَتَزَوَّجُ الأَخُ زوجةَ أَخيهِ بعدَ موتِه، ولذلك أَمَرَ

يَهوذا ابْنَهُ الثاني أُونان بتزوُّجِ أَرملةِ أَخيه، وقال له: ادْخُلْ على امرأةِ أَخيك، وقمْ بواجبِ الصِّهْرِ، وأَقِمْ نَسْلاً لأَخيك!

وكان أُونانُ خبيثاً ماكراً، وقد حَرِصَ على أَنْ لا تَحملَ امرأَتُه منه، لأَنَّ الأَولادَ لَنْ يُنْسَبوا إِليه، وإِنما سيُنْسَبونَ إلى أَخيه عِير، لأَنَّه هو الأَخُ الكبيرُ والزوجُ الأَولُ للمرأة، وهذا وفقَ الأَعرافِ اليهودية! ولذلك كان إِذا جامَعَ امرأَتَه أَفْرَغَ مَنِيَّهُ على الأَرض، لئلاّ تحملَ منه! وأَغضبَ بذلك ربَّه، الذي سرعانَ ما أَماتَه.

ويَجبُ أَنْ تَنتقلَ ثامارُ زوجةً للأَخِ الثالثِ شِيلَة، ولكنَّه كان صغيراً، فعلَيْها وفقَ الأَعرافِ اليهوديةِ أَنْ تنتظرَه حتى يكْبَرَ فيتزَوَّجَها.

فقالَ يهوذا لكِنَّتِه ثامار: بما أَنك أَرملَة، فاذْهَبي وأَقيمي في بيتِ أَبيكِ، وانتَظِري حتى يكبرَ ابني شِيلَة.

وبعد فترةٍ ماتَت امرأةُ يَهوذا، وكان يهوذا قد وَضَعَ غَنَمه تَرعى في منطقةِ «تِمْنَة» بين بئرِ السبع وحَبْرون، فذهبَ هو وصاحبُه حِيرَةُ لجَزِّ الغنمِ وقَطْعِ صوفِها ..

فقيلَ لثامار: ها هو حَمْوُكِ ذاهبٌ إِلى تِمْنَةَ لِجَزِّ غَنَمِه .. فرغبَتْ في أَنْ يُعاشِرَها ويُضاجِعَها!!

خلعَتْ ثيابَ تَرمُّلِها، وتغطَّتْ بالبُرْقُعِ واستترتْ، وجلستْ في مدخلِ

المدينة، وتعرَّضَتْ له..

ولما رآها يَهوذا لم يعرِفْها أَنها كِنَّتُه ثامار، وحَسِبَها زانية، لأَنها كانَتْ تُغَطّي وجْهَها بالبُرْقُعِ، كما تفعلُ الزانياتُ في ذلك الوقت.

فمالَ إِليها، وقالَ لها: تَعالي أَدْخُلْ عليكِ. قالَتْ له: ماذا تعطيني مقابلَ ذلك؟ قالَ لها: ليس معي الآنَ شيء، لكنّني ذاهبٌ إِلى الغنم، وسأُرسلُ لكِ جَدْياً! قالتْ: أَعْطِني رَهْناً إِلى أَنْ تُرْسِلَ الجَدْيَ. قال لها: ما هو الرَّهن؟ قالتْ له: الرهنُ هو خاتمُك وعمامتُك وعَصاكَ التي بيدِك!

فأَعْطاها الرهْنَ الذي طَلَبَتْه، ودخَلَ عليها وضاجَعَها .. ثم قامَتْ وذهبَتْ إِلى بيتِها ..

ولما وصلَ يَهوذا إِلى الغنم، أَرسلَ الجَدْيَ مع صاحِبه حِيرَة، ليفكَّ الرهْنَ من يدِ المرأة، فلم يَجِدْها. فسألَ الناسَ في المنطقة: أَين البَغِيُّ التي كانتْ على الطريق؟

فنفوا وُجودَ بغيٍّ على الطريق! فعادَ إِلى يهوذا وأَخْبَرَه أَنه لم يجدْها..

وبعد ثلاثةِ أَشهرٍ ظهرَتْ آثارُ الحملِ على ثامار، فقيل ليهوذا: لقد زَنَتْ كِنَّتُكَ ثامار، وها هي حُبْلى من الزنا!

فقالَ يهوذا: أَخرِجوها واحْرِقوها لأَنها زانية!

وعندما أَرادوا إِخراجَها أَرسلَتْ إِلى يهوذا الخاتمَ والعمامةَ والعصا، وقالَتْ: أَنَا حاملٌ من صاحبِ هذه الأَشياء!!

فعرفَ يهوذا أَنها حاملٌ منه، فأَوقفَ عِقابَها، وقال: هي أَبَرُّ منّي وأَصدق، وكان عَلَيَّ أَنْ أُزَوِّجَها لابني شِيلَة.

ولما حانَ وقْتُ ولادتِها، كان في بطنِها توأَمان، وأَخْرَجَ أَحَدُ التوأَمين يَدَهُ أَوَّلاً، فعَقَدتْ عليها القابلةُ خَيْطاً قُرْمُزيّاً، للدلالةِ على أَنه خرجَ أَوَّلاً، لكنَّه أَعادَ يَدَه، وخرجَ أَخوهُ قبلَه، فسُمِّيَ الأَولُ فارِص، وسُمِّيَ الثاني زارَح..» [التكوين ٣٨: ١-٣٠].

رفض زعم زناه بها:

وهكذا أَثبتَ الأَحبارُ أَنَّ يهوذا زنى بكِنَّتِه امرأَةِ ابنه، وأَنجبَ منها اثنَيْن من أَولادِه، وكانَ من نسلِ ابنِها الأَوَّلِ فارِصَ داودُ عليه السلام!

ونرفضُ روايةَ الأَحبارِ التي خَصَّصُوا لها الإِصحاحَ الثامنَ والثلاثين كاملاً، ونعتقدُ أَنَّ أَبناء يعقوبَ عليه السلام كانوا عَفيفين طاهِرين، ولم يكونوا زُناة!!

والعجيبُ أَنَّ الرهبانَ حاوَلوا تأويلَ وتعليلَ زنا يهوذا بكِنَّتِه ثامار، فقالوا: «تنتظرُ ثامارُ المحتجبةُ كالبَغِيّ يَهوذا في الطريق .. وهي تفعلُ ذلك،

لا بدافعِ العُهْرِ، بل برغبةِ الحُصولِ على وَلَدٍ من دَمِ زوجِها المتوفّى، وسيعترفُ يهوذا بصوابِ فعْلِها..» [العهد القديم: ١٢٨، حاشية: ٤].

وهذا تعليلٌ عجيبٌ ومرفوضٌ من هؤلاءِ الرُّهبان، إنَّ تَعَرُّضَ المرأَةِ لَحَمْوِها ووالدِ زوجِها، ورغبَتَها في مضاجعتِه ومعاشرتِه، أَمْرٌ غيرُ أخلاقي، وهو مرفوضٌ وقبيحٌ ومستَنْكَر، وهو زنا وفاحشة، مهما كانتْ بواعِثُها ودوافعُها .. وإنَّ زنا الرجلِ بالمرأةِ فاحشةٌ وفجور، سواء كانَتْ بعيدة، أَو كانتْ قريبةً امرأةً لابْنِه، وهذه الفاحشةُ أَشَدُّ قُبْحاً ومَقْتاً في الحالةِ الثانية .. ولذلك نرفضُ حكايةَ يهوذا مع كِنَّتِه ثامارَ جملةً وتفصيلاً!!

يوسف ومراودة النسوة

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ الذي اشْتَرى يوسُفَ في مصرَ هو «فوطيفارُ» كبيرُ خَدَمِ فِرْعَوْن، قالوا: «أَمّا يوسُفُ فقد أَنزلَهُ الإِسماعيليّون معهم إِلى مصر، فاشْتَراه منهم فُوطيفارُ المِصْري، كبيرُ خَدَمِ فِرْعَون ورئيسُ الطهاة، وكان الربُّ معَ يوسُف، فكان رَجُلاً ناجحاً، وأَقامَ في بيتِ سَيِّدِه المصري.

ورأى سيِّدُه أَنَّ الربَّ معه، وأَنَّ كُلَّ ما يَعملُه يُنْجِحُه الرَّبُّ في يدِه، فنالَ يوسفُ حَظوةً في عينَيْه، وخَدَمَه .. وأَوكَلَه فوطيفارُ على بيتِه، وجعلَ كلَّ شيءٍ في يَدِه، وباركَ الربُّ بيتَ فوطيفارَ إِكْراماً ليوسف، وشملَتْ بركةُ الرّبِّ كلَّ شيء في البيتِ والحَقْل، وتركَ ليوسفَ كُلَّ شيءٍ في البيت..»

[التكوين ٣٩: ١-٦].

وتحديدُ الأَحبارِ اسمَ ووظيفةَ الذي اشْتَرى يوسُفَ على طريقتِهم في ذكْرِ الأَسماءِ والتَّفصيلات، التي ليسَ لهم عليها دليل، وإِنما هي من بابِ الزعمِ والادِّعاءِ والافتراض، فَمَنْ أَدْراهم أَنَّ الذي اشْتَرى يوسُفَ هو فوطيفارُ وهو كبيرُ خَدَمِ فرعون ورئيسُ الطهاة؟

وزَعْمُهم أَنَّ فوطيفارَ سَلَّمَ يوسفَ كلَّ شيء في البيتِ ليس عليه دليلٌ أَيضاً.

ولقد اكتفى القرآنُ بذكرِ توصيةِ الذي اشتراهُ أهلَ بيته به، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢١-٢٢].

أَوصى الرجلُ امرأتَه به، وطَلَبَ منها أَنْ تُكْرِمَه، وأَنْ تكرمَ مَثْواهُ وإِقامتَه، وأَنْ تُحسنَ إِليه، لأَنه تَفَرَّسَ فيه خيراً، ورجا أَنْ ينفعَهما في حياتِهما، أَوْ يَتّخِذاه وَلَداً، ودَلَّ هذا على اهتمامِ الرجلِ به، وإِكرامِه له، وحُسْنِ تعامُلِه معه!

وهذا من حكمةِ اللهِ في تقديرِه وإِرادتِه سبحانه، فهو العليمُ الحكيمُ، يُريدُ إِيجادَ الشيء، ثم يُهيِّئُ له الأَسبابَ التي توصِلُ إِليه.

فاللهُ جعلَ ليوسُفَ عليه السلام مستَقْبَلاً مُشْرِقاً، وقَدَّرَ له أَقْداراً في حياتِه، يَمُرُّ بها في طريقِهِ إِلى ما قَدَّرَهُ اللهُ له، وها هو الآنَ في بيتِ عزيزِ مِصْر، واللهُ مَكَّنَ له في ذلك البيتِ حُسْنَ الإقامة، ليُعَلِّمَه من تأويلِ الأَحاديث، ولِينتقلَ منه إِلى ما بعده!

واللهُ غالبٌ على أَمره، يُحققُ إِرادَتَه، ويوجدُ مشيئته، ويُنْفِذُ قَدَرَه، ويُهَيِّئُ الأَسباب، ويُرَتِّبُ الأَحداث، ويُوظِّفُ الأَشياءَ لفعْلِ ما يُريد، لا

يمنعُه مانع، ولا يقِفُ أمامَ إرادتِه مخلوق.

وحَفِظَ اللهُ يوسُفَ في بيتِ العزيز، فلما بَلَغَ أَشُدَّهُ وصارَ شابّاً قويّاً راشداً، آتاه اللهُ الحكمةَ والعلم، فكانَ محسِناً صالحاً تقيّاً مخلِصاً.

كلام الأحبار عن مُراوَدَةِ امرأة العزيز:

تَعَرَّضَ يوسُفُ في بيتِ العزيزِ إلى امتحانٍ كبير، حيثُ ابتُلي بعشْقِ صاحبةِ البيتِ له، ورغبتِها في مضاجعتِه، ومرواديها له.

وقد اختلفَ كلامُ الأَحبارِ عن هذه الفتنة عن كلامِ القرآن.

قالَ الأَحبار: «كان يوسُفُ حَسَنَ الهيئة، جميلَ المنظر .. وحَدَثَ أَنَّ امرأَةَ سيِّدِه رفعَتْ عينَيْها إلى يوسف، وقالَتْ له: اضطجعْ معي! فأَبى، وقال لها: سيِّدي لا يَعرفُ شيئاً في البيت، وكلُّ ما يملِكُه ائْتَمَنني عليه، وسيِّدي لم يمنعْ عنّي شيئاً غيرَك، لأَنكِ امرأَتُه، فكيفَ أَصنعُ هذه السيئةَ العظيمة، وأُخطئُ إلى الله؟

وكلَّمَتْه يوماً بعدَ يوم، أَنْ يضطجعَ بجانبِها ويَنامَ معها، فلم يسمعْ لها.

واتفقَ في أَحَدِ الأَيام أَنه دخلَ البيتَ ليقومَ بعملِه، ولم يكنْ في البيتِ أَحَدٌ من أَهْلِه، فأَمسكَتْ بثوبِه، وقالَتْ له: ضاجِعْني! .. فترَكَ ثوبَه بيدِها وفَرَّ هارباً إلى الخارج..

فصاحَتْ بأَهْلِ بيتِها وقالَت لهم: انْظُروا كيفَ جاءَنا برجلٍ عِبْرانِيٍّ، لِيُداعبَنا ويتلاعَبَ بنا، دخلَ عليَّ ليضاجِعَني، فصرخْتُ بأَعلى صوتي، فلما سمعَني أَصرخُ تَرَكَ ثوبَه بجانبي وفَرَّ هارباً إِلى الخارج..

وَوَضَعت المرأةُ ثوبَ يوسُفَ بجانِبِها، حتى جاءَ زوجُها إِلى بيتِه، فحكَتْ له الحكايةَ ذاتها. قالَتْ: هذا العبدُ العبرانيُّ الذي جئتَنا به دَخَلَ ليداعِبَني، وعندما رفعْتُ صوتي وصرخْتُ تَرَكَ ثوبَه بجانبي وهَرَب..

فلما سمعَ ذلك غضبَ على يوسفَ غضباً شديداً، وجعلَه في السجن»
[٣٩: ٧-٢٠].

أَخبرَ الأَحبارُ أَنَّ المرأةَ اشتهتْ يوسُفَ، وطلبتْ منه أَنْ يُعاشِرَها، فأَبى ذلك، لأَنَّ سيِّدَهُ ائْتَمنه على كلِّ ما في البيت، وكَرَّرَت الطلب، وكَرَّرَ الإِباء، واضطرَّتْ إِلى الإِمساكِ بثوبِه لإِكْراهه على المعاشرة، ولكنَّه تَرَكَ ثوبَه معها وهَرَب .. فجمعَتْ أَهلَ البيتِ عليه، واتهمَتْه بالهجومِ عليها لمعاشرتِها، ولما جاءَ زوجُها أَخبرتْه بالحكاية وأَعادت اتِّهامَها ليوسُفَ، فغضبَ عليه وسَجَنَه..

ويلاحَظُ أَنَّ يوسفَ كان معروفاً في بيتِ ذلك الرجل بالخادمِ العِبْرانِيّ، وقد وصفَتْه المرأةُ بذلك مرَّتين، عندما اتهمَتْه بمراودتِها أَمامَ أَهلِ البيت، وعندما اتهمتْه بذلك أَمامَ زوجِها.

وَوَصْفُه بالعِبّرانِيٍّ يدلُّ على أنهم كانوا في مصرَ يعرفونَ أنه جيءَ به من أَرضِ كنعان.

وهذهَ ثاني مرةٍ يُذْكَرُ فيها لَفْظُ عِبْرانِي في سِفْر التكوين. وكانتْ أَوَّلُ مرةٍ ذُكِرَ فيها عندما أُطلقَ وَصْفاً على إبراهيمَ عليه السلام.

كانَ إبراهيمُ مقيماً عند بَلّوطة مَمْرا في حَبْرون، وكان أَهلُ المنطقةِ يَعرفونَ بأنه: «أَبرامُ العبراني» [التكوين١٤: ١٣-١٤].

ولعلَّه وُصِفَ بالعِبْرانيِّ نسبةً إلى «عابَر» أَحَدِ أَجْدادِه، كما سبقَ أَنْ ذكَرْنا.

وهنا يوصَفُ يوسُفُ في مصرَ بأَنه عِبْرانِيّ، ولعلَّه وُصِفَ بذلك لانتسابِه إلى إبراهيمَ العبرانيّ.

ومن المحتملِ أَنْ يكونَ وَصْفُ يوسُفَ بالعبرانيِّ إنما جاءَ على لسانِ الأَحبارِ عند روايتِهم للأَحداث، وليس على لسانِ المصريّين! ولعلَّ هذا هو الراجح!

كلام القرآن عن مراودة المرأة ليوسف:

وقد أَخْبَرَنا اللهُ في القرآنِ عن مروادةِ المرأَةِ ليوسف، وإبائِه واستعصامِه، وسجنِه ظُلماً وعُدواناً.

قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣-٣٥].

لقد أَضافَ القرآنُ معلوماتٍ ولقطاتٍ على ما ذَكَره الأَحبار، واختلفَتْ طريقةُ عرضِه للحادثةِ عن طريقةِ عرضِ الأَحبار، ويمكنُ تَسجيلُ الفروقِ التالية بينهما:

معنى مروادتها له:

١-أَخبرَ الأَحبارُ أَنَّ المرأةَ اشتهتْ يوسفَ وقالَتْ له: ضاجِعْني. بينما أَخبرَ القرآنُ عن ذلك بقوله: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ واختيارُ فعْلِ ﴿ رَٰوَدَتْهُ ﴾ مقصود، واللطيفُ أَنَّ الفعلَ «راودَ» وردَ في قصةِ يوسفَ أَكثرَ من مرة.

وفعْلُ «راودَ» مشتَقٌّ من الرَّوْد، ويتحقَّقُ فيه معنى الإِرادة. وقد ذكرَ الإِمامُ الراغبُ الأَصفهانيُّ الفرقَ بين الرَّوْدِ والإِرادَة والمراودة، وخلاصةُ ما قاله هو: «الرَّوْدُ: التَّرَدُّدُ في طلبِ الشيء برفْق. يقال: رادَ وارْتادَ .. والإِرادَة: منقولَةٌ من: رَادَ، يَرُود. إذا سعى في طَلَبِ شيء. والإِرادَةُ في الأَصْل: قُوَّةٌ مركَّبَةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأَمَل. وجُعِلت اسْماً لنُزوعِ النفسِ إلى الشيءِ، مع الحُكْمِ فيه بأَنه يَنبغي أَنْ يُفْعَلَ أَو لا يُفْعَل..

والمراوَدَةُ أَنْ تُنازِعَ غيرَكَ في الإِرادة، فتُريدُ غيرَ ما يُريدُ، أَو تَرودُ غيرَ ما يَرودُ..» [المفردات في غريب القرآن: ٣٧١].

تدلُّ جملةُ ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ على اختلافِ إِرادةِ المرأَةِ وإِرادةِ يوسف، واستمرارِ إِرادةِ المرأَةِ في إِبطالِ إِرادةِ يوسف.

فإِذا كانت هي تُريدُ منه الشَّهوة، فإِنه هو يُريدُ العِفَّة، وكانتْ هي تُنازِعُه إِرادَتَه، وتُريدُ إِبطالَها والقضاءَ عليها، أَيْ تُريدُ إِغراءَه وفتْنَتَه لحمْلِه على التخلّي عن إِرادتِه بالعِفَّةِ والطهارة، والاتفاقِ معها في إِرادتِها، وقضاءِ الشهوة!

ويدلُّ فعلُ «راوَدَتْه» على استمرارِ مراودتِها مراتٍ عديدة، لعلَّها استمرَّتْ سنوات، سلَكَتْ فيها كلَّ أَساليبِ المراودةِ والإِغراءِ والتأثير، من النظرةِ والكلمةِ والتبرجِ والإِشارة .. وكان يوسُفُ يقابلُ كلَّ أَساليبِها ومحاولاتِها بإِرادةٍ حازمةٍ جادّة، بالترفُّعِ عن دعوتِها ومراودتِها.

وإِذا كانَتْ جملةَ: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ إِدانةً للمرأةِ بمراودةِ يوسفَ وإِغرائِه، فإِنها تُعتبرُ شهادةً ليوسفَ بالعفَّة والطهارة.

إِنها هي التي تُراوِدُه وليس هو، وهي السيدةُ وهو العبد، والبيتُ بيتُها وليس بيتَه، وهي ستهيِّءُ الأَمْر، وتضمنَ الأَمْنَ والتكتُّم، فكلُّ ما حولَه يَدْعوهُ إِلى معاشرتِها، ويضمنُ له الأَمْنَ والسلامة، فلو كانتْ

عنده أدنى رغبةٍ فيها لاستجابَ لها ونَفَّذَ دعوتَها .. فترفُّعُه رغمَ كلِّ هذه المغرياتِ دليلٌ على عفَّتِه وطهارتِه..

رده على قولها «هيت لك»:

٢-أَخبرَ الأَحبارُ أَنَّ يوسفَ دخلَ البيتَ يوماً ليقومَ بعملِه، ولم يوجَدْ فيه أَحَدٌ غيرُ صاحبتِه، فأمسكَتْ بثوبِه، وقالَتْ: اضطجعْ معي، فَتَرَكَ الثوبَ بيدِها، وهربَ إِلى خارجِ البيت.

أَما القرآنُ فقد قالَ عن الحادثة: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

إِنَّ القرآنَ يُفَصِّلُ القولَ في حادثةِ المراودة، ليقَدِّمَ شهادةً قيمةً ليوسُفَ بالعفَّةِ والطهارة:

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾: كانت المرأةُ حريصةً على تأْمينِ الأَمرِ وتهيئةِ الجوِّ، وعدمِ انكشافِ الخُطَّة، ولذلك قامَتْ بإِغلاقِ كلِّ الأَبواب، التي تقودُ إِلى غرفتِها.

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾: دَعَتْه دعوةً صريحةً مباشرةً مكشوفةً لمعاشرتِها،

وهي لا تحتملُ أيَّ تفسيرٍ آخر..

والراجحُ أنَّ «هَيْتَ» اسْمُ فعلٍ ماضٍ، بمعنى تَهَيَّأْتُ. ويمكنُ أَنْ تكونَ اسْمَ فعلِ أمرٍ بمعنى أَقْبِلْ وتَعالَ وهَلُمَّ.

فيكونُ معنى: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾: لقد تَهَيَّأْتُ لك، واستَعْدَدْتُ لك، وجَهَّزْتُ نفسي لك، فَتَعالَ وأَقْبِلْ عَلَيَّ، وعاشِرْني وضاجِعْني.

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾: هذا ردُّ يوسفَ على دعوةِ المرأةِ المكشوفةِ الصريحة، حيثُ استعاذَ باللهِ ولجأَ إليه، واعتصمَ به.

و«مَعاذَ»: مصدرٌ ميمي، بمعنى العوذِ والاحتماءِ بالله، واللجوءِ إليه، أي: إنني أَرُدُّ على دعوتِك باللجوءِ إلى الله، وأَرفضُ الاستجابةَ لها.

وأَتْبَعَ يوسُفُ رفضَه بتعليلِ عدمِ الاستجابةِ لها بقولِه: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾. أَيْ: لقد أَحسنَ ربِّي مثوايَ وسَكَني وإِقامتي، فكيفَ أُقابلُ هذا الإِحسانَ بالسوءِ والظلمِ، وأَرتكبُ فاحشةَ الزنا؟

والراجحُ أنه يَقْصدُ بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ اللهَ ربَّ العالمين، وليس زوجَها، كما زعمَ الأَحبار.

إِنه لا يليقُ أَنْ يُطلقَ يوسُفُ على زوجِها «ربَّه» مع أَنه سيدُه، وهو عبدٌ

عندَه، لأنه نبيٌّ كريم -أَو سيكونُ نبيّاً كريماً- عليه السلام. فإذا قال: إنه ربّي أَحسنَ مَثْوايَ، كان معناه: إنَّ اللهَ ربّي لطيفٌ بي، وقد أَحسنَ إقامَتي في البيت، ويجبُ أَنْ أُقابلَ إحسانَه بالشكر وليس بالفُحش!

الفرق بين همها به وهمه بها:

٣-فَصَّلَ القرآنُ الحديثَ عن لحظاتِ المراودةِ الأَخيرةِ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

وهذا لم يَقُل الأَحبارُ فيه شيئاً. والهَمُّ هنا بمعنى الرغبةِ في المضاجعةِ والمعاشرةِ وقضاءِ الشهوة.

وأَثبتَ القرآنُ الهَمَّ منها بصيغةٍ مُؤَكَّدَة: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾، وهي جملةٌ خبريةٌ مُثْبَتَة، لأَنها هي التي راودَتْ وغَلَّقَت الأَبوابَ وقالَتْ هيتَ لك، وهذا كلُّه هَمٌّ ورغبةٌ منها في المضاجعة.

أَمَّا هَمُّ يوسفَ بها فإِنَّ القرآنَ نفاهُ عنه: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

الراجحُ أَنَّ الواوَ في ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ حرفُ استئناف، وليستْ حرفَ عطف، وبعدها جملةٌ استئنافية، وليستْ معطوفةً على ما قبلَها. وهذه الجملةُ الاستئنافية جملةٌ شرطية، وحرفُ الشرط «لولا» يدلُّ على «امتناعٍ لوجود» أَي: يَمتنعُ حُصولُ فعْلِ الشرط لوجودِ جوابِ الشرط.

والراجحُ أَنَّ فعلَ الشرطِ هو جملةُ: ﴿ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ وجوابُ الشرط جملة ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ المقَدَّمة. والتقدير: لولا أَنْ رأى برهانَ ربِّه لَهَمَّ بها.

والراجحُ أَنَّ المرادَ ببرهانِ ربِّه: قوةُ الإيمان باللهِ في قلْبِه، ومراقبتِه له، وقد خاطَب المرأة بصراحة فقال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فهذه الجملةُ تشيرُ إلى برهانِ ربِّه الذي منَعه من الهَمِّ بها.

أَلفيا سيدها لدى الباب:

٤-أشارَ القرآنُ إلى أَنَّ اللهَ عَصَمَ يوسفَ من الهمِّ بالمرأة، والرغبةِ في مضاجعتِها، بأَنْ قوّى الإيمانَ في قلْبِه، وعَلَّلَ ذلك بأَنَّ اللهَ يُريدُ أَنْ يَصرفَ عنه السوءَ والفحشاء، لأَنه من عبادِه المخْلَصين.

وكلمةُ «كذلك» في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ تَربطُ ما بعدَها بما قبلَها، والتقدير: كما صَرَفْنا عن يوسفَ الهَمَّ بامرأةِ العزيزِ كذلك نَصرفُ عنه أَيَّ سوءٍ وفحشاء، وفعلْنا ذلك به لأَنه من عبادِنا المخْلَصين.

٥-أَخبرَ الأَحبارُ أَنها لما أَمسكتْ بثوبِه لتُكْرِهَه على مضاجعَتِها تَرَكَ ثوبَهُ في يَدِها، وفَرَّ هارباً إِلى خارجِ البيت!

وأَما القرآن فقد قال: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ ﴾. وفَرْقٌ بين الجملَتْين، والمعتمدُ هو ما ذَكَرَهُ القرآن.

ومعنى: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾: توجَّهَ كُلٌّ منهما إلى البابِ المغْلَق، الذي أَغْلَقَتْه المرأةُ بعناية، كلٌّ منهما يريدُ أَنْ يسبقَ الآخَرَ إلى الباب. هو يُريدُ أَنْ يَسبقَها إلى الباب، ليهربَ منها وينجوَ من إغرائِها، وهي تُريدُ أَنْ تسبقَه إلى البابِ لِتُبْقيه مُغْلَقاً، وتُعيدَهُ إلى مضاجعتِها .. وأَثناءَ استباقِهما البابَ أَرادَتْ شَدَّهُ إليها، وكانَ أَمامَها، فَأَمسكتْ بقميصِه لتجذِبَه إليها، فقدَّت القميصَ من الخلف.

المرأة تتهم يوسف وهو يدافع عن نفسه:

٦-أَخبرَ الأَحبارُ أَنَّ المرأةَ صاحَتْ بأهلِ البيت، واتهمتْ يوسفَ بمهاجمتِها، ومحاولةِ الاعتداءِ عليها، ولما صرخَتْ تركَ ثوبَه عندها وهَرَب. وهذا لم يصدرْ عنها، لأَنَّ القرآنَ لم يذكُرْه!

وأَخبرَ الأَحبارُ أَنها أَبقتْ ثوبَ يوسفَ عندَها، إلى أَنْ جاءَ زوجُها بعد فترةٍ، فحكَتْ له الحكاية، وقَدَّمَتْ له الثوب.

وقالَ القرآنُ غيرَ ذلك: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ ﴾.

ومعنى: ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾: فوجِئا بزوجِها خَلْفَ الباب.

أَيْ: ما أَنْ فَتَحَ يوسُفُ البابَ ليهربَ منها، وهي خَلْفَه، حتى رأى سيِّدَها واقِفاً بالباب!

لقد كانت اللَّقطاتُ والمناظرُ متتابعة، وكانتْ مفاجأَتُها بزوجِها فورية، وليسَ بعد فترةٍ طويلة، كما زَعَمَ الأَحبار.

ولقد كانت المرأةُ في غايةِ المكرِ والكيد، ولذلك رتَّبَتْ وهَيَّأَت الأُمور، وحَسَبَتْ مختلفَ الاحتمالاتِ والتَّوَقُّعات، وجعلَتْ لكلِّ احتمالٍ حَلاً مناسباً..

لقد وَضَعت احتمالَ أَنْ تُفاجأَ بزوجِها، ولذلك لم تُدهشْ أَو تَضطربْ أو تَخَفْ، وإِنما سارعتْ باتِهام يوسف، وخاطبَتْ زوجَها بلهجةِ المظلومةِ العفيفةِ المعْتَدى عليها، وقالَت له: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أَمّا يوسُفُ فإنه على حَقّ، وهو بريءٌ من تهمةِ الاعتداء، وتكلَّمَ بلهجةٍ صادقةٍ مجملة: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ فأسندَ المراودةَ إليها.

ولم يذكُر الأَحبارُ ما قالَه يوسفُ للعزيز. وفَرْقٌ بين ما نَسَبَهُ الأَحبارُ لها من اتهامٍ ليوسف، وبينَ ما قدَّمَه القرآنُ الحَقُّ من إِخبارٍ عنها!

شهادة الشاهد حول القميص:

٧-لم يتكلم الأَحبارُ عن قدِّ قميصِ يوسُفَ من دُبُر، وعن الحكم الذي حَكَمَ به ذلك الخبيرُ من أهلها، وعن نتيجةِ التحقيق.

وهذا ما انفردَ به القرآن، قال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٢٧ ﴾.

لقد كان هذا الشاهِدُ واحداً من أَهْلِ المرأة، كما كان واعياً بَصيراً، حيثُ بنى حُكْمَه على قميصِ يوسف، فإنْ قُدَّ من الأمامِ كان هو المعتدي عليها، وهي تُدافعُ عن نفسِها، وتَدفعُه بقَدِّ قميصِه. وإنْ قُدَّ من دُبُرٍ كان بريئاً هارباً منها، وكانتْ هي المعتدية، تَلحقُ به لتُمسكَه، فتَقُدَّ قميصَه!

ولم يَطُل التحقيق، فالقميصُ موجود، وما أَنْ نَظروا إِليه حتى عَرفوا صِدْقَ يوسفَ وبراءَتَه، وإدانَتَها هي بالمراودة، وتكذيبَها في اتِّهامها له!

٨-لم يذكُر الأَحبارُ رَدَّ فعْلِ زوجِها، بعدما عرفَ مراودَتَها واعتداءَها على يوسف.

أَمَّا القرآنُ فقد ذَكَرَ ذلك في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩ ﴾.

كانتْ أَعصابُ الزوجِ باردة، حيثُ فَقَدَ الغيرةَ والحميّة، فقد ثَبتَ له

مراودةُ امرأتِه لعبدِه، ومع ذلك لم يَبْطشْ بها ويُعاقبْها، ولم تأخُذْه الغَيْرَة، وقالَ لها: إنَّه من كيدِكُن، إنَّ كيدكُنَّ عظيم! .. وكأنهُ يُشيدُ بكيدِها وفتنتِها وأُنوثَتِها وشَهوانيتِها، بحيثُ دفعَتْها إلى مراودةِ فتاها.

ثم التفتَ إلى يوسفَ، وطلبَ منه أَنْ لا يُخبرَ أَحَداً بما جرى له. ولم ينسَ أَنْ يقولَ لامرأَته ببرود: استغفِري لذنبك إنك كنت من الخاطئين.

نسوة المدينة يراودن يوسف:

٩-لم يَذكُرَ الأَحبارُ شيئاً عن حديثِ نسوةِ المدينة، وما جرى بينهنَّ وبينَ امرأةِ العزيز بشأن يوسف.

وهذا ما انفَردَ القرآنُ بذكْرِه: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾.

النسوةُ المترَفاتُ يَعذِلْنَها ويَلُمْنَها ويَعتبرْنَها في ضلالٍ مبين، إذْ كيفَ تهبطُ في حُبِّها إلى مستوى عبدٍ عندَها، تَشتهيهِ وتُغْريه، والرجالُ كثيرون!

ولما سمعَتْ كلامَهنَّ وعَذْلَهنَّ أرادتْ أَنْ تُبينَ لهنَّ أنها على صواب، وأَن جمالَ عبدِها لا يُقاوَمُ .. فدعَتْهنَّ إلى جلْسَةٍ خاصة، وهَيَّأَتْ لهنَّ متكئاً، وأَعطَتْ كلَّ واحدةٍ منهن سِكِّيناً، لتقطعَ به الفاكهةَ والأَكْل .. وبينما كُنَّ مشغولاتٍ بالأَكْلِ والتقطيع، فاجأَتْهنَّ بعبدِها المحبوب، فلما رأَيْنَه سُحِرْنَ بجمَالِه وأكبرنَه، ونَسينَ أَنفسَهنَّ، وقَطَّعْنَ أَيديهن، وقُلْنَ: حاشَ لله ما هذا بشراً، إن هذا إلا مَلَكٌ كريم..

عند ذلك أَحَسَّتْ بالانتصارِ عليهن، وأَخَذَتْ شهادةً منهنَّ لها أنها على صواب.

فجاهرَتْ بحبِّه، وتَصميمِها على مضاجعتِه: قالتْ فذلكنَّ الذي لُمتُنني فيه، ولقد راودته عن نفسِه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننَّ وليكونن من الصاغرين..

يوسف يختار السجن على الفاحشة:

١ -سكتَ الأَحبارُ عن موقفِ يوسفَ من مراودةِ النسوةِ له، وعن تهديد امرأَةِ العزيزِ له بالسجن.

أَما القرآنُ فقد ذَكَرَ ذلك، لما فيه من العبرةِ والعظة، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾.

اعتبرَ يوسُفُ عليه السلام السجنَ -وما فيه من محنةٍ وضيقٍ وشدَّة- أَحَبَّ إليه من دعوتِهن له لمضاجعتِهن، ولذلك فَضَّلَ السجنَ على الاستجابةِ لهنّ، ولجأ إلى الله، طالباً منه صرفَ كيدِهِنَّ عنه.

وهو بهذا الموقفِ اختارَ العِفَّةَ والفضيلةَ والطهارة، ورَفَضَ الانحرافَ والشهوةَ والرذيلة. وتَسجيلُ هذا الموقفِ في القرآنِ دعوةٌ للمؤمنين إلى الاقتداءِ به عندما يُبْتَلَوْنَ بفتنةِ الشهوةِ والمراودة.

لكنَّ الأَحبارَ لا يَعرفونَ هذه المعاني، ولذلك لا يلتفتونَ إليها، ولا يَنتبهون لها، وهم مَشغولون بسرْدِ التفاصيلِ والمزاعمِ التي لا دَليل عليها ولا فائدةَ منها!!

ووجودُ هذه الفروقِ بين كلامِ الأَحبارِ وكلامِ القرآن عن حادثةِ المراودةِ، دليلٌ على أَنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليس تأليفَ محمدٍ ﷺ، فلو كان من تأليفِه وأَخَذَه من أَهلِ الكتاب، لنقلَ كلامَ الأَحبارِ نقلاً، وما خالَفَه في شيء، ولا أَضافَ عليه أيّ شيء!!

ونُذَكِّرُ بأَنَّ المعتمدَ والصحيحَ هو ما وردَ في القرآن، وأَنَّ كلامَ الأَحبارِ المتعارضَ مع القرآن مردود.

يوسف يعبر الرؤى

تحدَّثَ الأحبارُ في الإصحاح الأربعين عن وجودِ سجينَيْنِ مع يوسُف، رأى كلٌّ واحدٍ منهما رُؤيا، فَعَبَّرَ يوسفُ رُؤْياه، وتحقَّقَ تَعبيرُه في عالَم الواقع.

قالوا: «وحَدَثَ بعدَ ذلك أَنَّ رئيسَ السُّقاةِ ورَئيسَ الخَبّازين خَطِئا إلى سيدِهما فرعونَ ملكِ مصر، فاشتدَّ غضَبُه عليهما، وحَبَسَهما في سجنِ بيتِ رئيسِ الطُّهاةِ في الحِصْن، حيثُ كانَ يوسُفُ مسجوناً، فأَوْكَلَ رئيسُ الطُّهاةِ أَمْرَهما إلى يوسف، فاعْتنى بهما مُدَّةَ إقامتهما في السِّجْن..

يوسف يفسر حلمي السجينين:

وفي ليلةٍ واحدةٍ رأى كلٌّ من ساقي مَلِكِ مصر وخَبازِه حلْماً، له تفسيرٌ غيرُ تفسيرِ الآخَر، ولما دَخَلَ عليهما يوسُفُ في الصباحِ الباكرِ رآهما مضطربَيْن، فسألَهما: ما بالُ وجهَيْكُما مكتَئِبَيْن اليوم؟ فقالا: رأَيْنا حُلْماً، وليسَ لنا مَنْ يُفَسِّرُه. فقال لهما: أَنا أُفسِّرُه لكما!

فقَصَّ رئيسُ السُّقاةِ حُلْمَه على يوسُف، فقال: رأَيْتُ كَأَنَّ كَرْمَةً بين يَدَيَّ، وفي الكَرْمَةِ ثلاثةُ قُضْبان، فما أَنْ أَفْرَخَتْ حتى طلعَ زهْرُها، ونضجَتْ عَناقيدُها، وصارَتْ عِنَباً، وكانتْ كأْسُ فرعونَ في يَدِي،

فأَخَذْتُ العنبَ وعصَرْتُه في كأس فرعون، وناولْتُ الكأسَ لفرعون..

ففسَّرَهُ له يوسُفُ قائلاً: الثلاثةُ القُضبانُ هي ثلاثةُ أيام، وبعدَها يَرْفَعُ فرعونُ رأْسَك، ويردُّك إلى مقامِك، وتُناولُ فرعونَ كأسَك، كعادتِك حينَ كنتَ ساقِيه .. ومتى حسنَتْ حالُكَ ترْأفُ بي ولا تَنْسَني، واذْكُرْني لفرعونَ، ليُخرجَني من هذا السجن .. لأنّي خُطِفْتُ من أَرضِ العِبْرانيّين، وطُرِحْتُ هنا في السجنِ، من غيرِ أَنْ أَفْعَلَ شيئاً..

ولما رأى رئيسُ الخَبّازين أَنَّ التفسيرَ كان خَيْراً قالَ ليوسف: حلمتُ كأَنَّ على رأْسي ثلاثَ سِلالٍ من الخبزِ الأَبْيض، وفي السَّلّةِ العُلْيا مختلَفُ أَصنافِ الطعامِ المخبوزِ التي يحبُّها فرعونُ، والطيرُ تأْكُلُها من السَّلَّةِ التي فوقَ رأسي..

ففسَّرَه يوسفُ له قائلاً: الثلاثُ السِّلالُ هي ثلاثةُ أَيّام. وبعدَ ثلاثةِ أيامٍ ينزَعُ فرعونُ رأْسَكَ عن بدنِك، ويُعَلّقُك على خَشَبة، وتأكلُ الطيْرُ من لحمِك.

وفي اليوم الثالث، يومِ مولدِ فرعون، أَقامَ فرعونُ وليمةً لجميعِ عبيده، فأَحضرَ رَئيسَ السُّقاةِ ورَئيسَ الخَبّازينَ إلى أَمام رجالِ حاشيتِه .. فردّ رئيسَ السُّقَاةِ إلى وظيفتِه، ليُناولَ فرعونَ الكأْسَ، وأَما رئيسُ الخَبّازين فقد عَلَّقَهُ على خَشَبَة .. كما فَسَّرَهُ لهما يوسُف .. ونسيَ رئيسُ السُّقاةِ يوسفَ، ولم

يذكُرْه لفرعون..» [التكوين ٤٠: ١-٢٣].

هذا ما قاله الأحبارُ عن رؤيا السجينَيْن التي عَبَّرَها يوسفُ لهما، فماذا قالَ القرآنُ عنهما؟

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف: ٣٦-٤٢].

ملاحظات على رواية الأخبار لتفسير الحلمين:

وعندما ننظرُ في روايةِ الأَحبارِ من خلالِ ما ذكَرَه القرآن، فسوفَ نَخْرُجُ بالملاحظاتِ التالية:

١-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ حاكمَ مصرَ في هذه الفترةِ يلقَّبُ بفرعون، وذكَروا هذا اللقبَ عدةَ مرات. وهذا زعْمٌ يُخالِفُه القرآن، حيثُ أَطلقَ عليه لقبَ «الملِك» ووردَ هذا اللقبُ أَكثرَ من مرة.

أَمَّا لقبُ فرعونَ فقد أَطْلَقَه القرآنُ على حاكمِ مصر، في زمنِ موسى عليه السلام، وهذه التفرقةُ القرآنيةُ بين لَقَبِ حاكمِ مصرَ في العهدَيْن مقصودة، وقد تَفَرَّدَ بها القرآن، بينما لم يلتفت الأَحبارُ لها.

ولعلَّ لهذه التفرقةِ القرآنية دلالةً تاريخية، فالذين حَكَموا مصرَ في عهدِ يوسفَ عليه السلام كانوا من أُصولٍ سامِيَّةٍ أَو عربية، وأَطلقَ عليهم المؤَرِّخونَ لقبَ الرعاةِ أَو الهكسوس، ولذلك كانوا ملوكاً .. أَمّا الذين حكموا مصْرَ بعدَ ذلك فهم أَقباطٌ من أُصولٍ قبطيةٍ مصرية، ولذلك كانوا فراعنة، ولقبُ الواحدِ منهم هو فرعونُ!

٢-حَدَّدَ الأَحبارُ عَمَلَ السجِينَيْن بأَنَّ أَحَدَهما كان رئيسَ السُّقاة، وكان الآخَرُ رئيسَ الخَبّازين، وأَنَّ مُديرَ السجنِ كان رئيسَ الطُّهاة، وأَنه أَوْكَلَ أَمْرَهما إِلى يوسف.

وهذا تحديدٌ قائمٌ على الزَّعْم، وليس عليه دليل، وقد اكتفى القرآنُ بذكْرِ أنهما فَتَيان: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾، والفَتَيانِ هما الخادِمان في بلاطِ الملك، غضبَ عليهما الملكُ فسجنَهما..

والأَوْلى البقاءُ مع القرآن، وعدمُ إِضافةِ شيء عليه، والسكوتُ عن ما سكتَ عنه، وعدمُ تَبيينِ ما أَبهمه..

٣-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسُفَ هو الذي عرضَ عليهما أَنْ يُفَسِّرَ لكلٍّ منهما حُلْمه، لّما رآهُما حزينَيْن مكتئبَيْن..

وهذا زعْمٌ مردود، فقد ذَكَرَ القرآنُ أَنَّ السجينَيْن هما اللَّذان عَرَضا عليه تعبيرَ ما رأَياه، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

لقد أَنِسَ السجينان به، وارتاحا إِليه، وذَهَبا إِلى أَنَّه من المحسنين، ولذلك طَلَبا منه أَنْ يُعَبِّرَ لهما الرؤيا.

٤-ذَكَرَ الأَحبارُ تفصيلاتٍ في رؤيا كلٍّ واحدٍ من السجينَيْن، وهذه التفصيلاتُ مزاعمُ ليس عليها دليل.. والأَوْلى البقاء مع القرآن، الذي اكتفى بالإِشارةِ المجملة. فالأَوَّلُ رأى نفسَه يَعصرُ خمراً، والثاني رأى نفسَه

يَحملُ فوق رأسِه خبزاً تأكُلُ الطيرُ منه: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ ﴾.

يوسف داعية في السجن:

٥- لم يَذكر الأَحبارُ شيئاً عن دعوةِ يوسفَ السجينَيْن إلى اللهِ، وتوحيدِه وعدمِ الشركِ به، لأَنَّ هذا الأَمْرَ لا يعرفونه، وهذه الدعوةَ لا تَعنيهم.

إِنَّ الذي يُهمُهم هو مجردُ التاريخِ والرواية، وذكْرُ التفاصيلِ والجزئياتِ الفرعيةِ الثانوية، ومعظمُها مزاعمُ وادِّعاءاتٌ ليس عليها دَليل، وإِنَّ مَنْ يقرأُ سيرةَ الأَنبياءِ كما سَجَّلَها الأَحبارُ في الأَسفار، لا يجدُ فيها مظاهرَ وآثارَ النبوة، ولا لغةَ الدعوة والنصيحةِ والتذكير، ولا يتعرَّفُ على الإِيمانِ والأَخلاقِ والفضائل، ولا يُزكي نفسَه ويُطهِّرُ خُلُقَه من خلالها. إِنه لا يجدُ في سيرتِهم إِلا مجردَ الحركاتِ والتصرفات، والأَقوالِ والأَفعال، وكثيرٌ منها قائمٌ على المكرِ والكيدِ، والتحايلِ والتآمُر.

لم يَلتَفت الأَحبارُ عند تأليفهم أَسفارَ العهدِ القديم إِلى الدعوةِ والعظةِ، والصبرِ والاحتمالِ، والمواجهةِ والجهاد، لأَنَّ هذه لغةٌ لا يَعرفونَها..

أَمَّا القرآنُ فإِنه كلامُ الله، وهو كتابُ هدايةٍ ودعوة، وبيانٍ وتعليم، ولذلك كان يُرَكِّزُ على المواقفِ الإِيمانيةِ والدعوية، ويُبرزُ البيانَ الإِيمانيَّ والدعوي، وبذلك يكونُ الأَنبياءُ رسلاً مبشِّرين ومنذِرين، ودعاةً

مبلّغين..

ولذلك اكتفى الأَحبارُ بذكْرِ تفسيرِ يوسفَ رؤيا كلٍّ واحدٍ من السجينَيْن تفسيراً مجرَّداً.

أما القرآنُ فقد أبرزَ لنا موقفَ يوسفَ الداعية .. فلما وعَدَهما بتأويلِ الرُّؤْيا أَخبرهما أَنَّ هذا بتعليمِ اللهِ له: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ ﴾.

وفَرَّقَ لهما بينَ ما عليه قومُهما في مصْرَ من عدمِ الإيمانِ بالله والكفرِ بالآخرة، وما عليه هو وآباؤُه من إيمانٍ بالله: ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

واعتبرَهما صاحبَيْن له، وقالَ لهما: يا صاحبي السِّجن، ودَعاهما إلى الموازنةِ بينَ عبادةِ الله وحْدَه وعبادةِ آلهةٍ متفرقين، وملاحظةِ ما هم عليه من باطلٍ في عبادةِ غيرِ الله: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ ﴾.

وخَتَمَ يوسُفُ عليه السلام بيانَه الدعويَّ ببيانِ أَنَّ الدينَ القَيِّمَ يقومُ على

إِفرادِ اللهِ بالعبادةِ والخضوع: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

٦-حَدَّدَ الأَحبارُ موعدَ تفسيرِ الحُلْمِ لكلٍّ منهما بأَنَّه سيكونُ بعدَ ثلاثةِ أيام، حيثُ سيُعادُ أَحَدُهما إلى خدمةِ المَلِك، وسيُقْتَلُ الآخرُ صَلْباً.

وهذا التحديدُ ليس عليه دليل.

وقد ذكَرَ القرآنُ تعبيرَ يوسُفَ للأَولِ بأنه سينجو ويُعادُ للخدمة فالذي قال: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ قالَ له يوسف: ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾، والذي قالَ: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ قالَ له يوسف: ﴿ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾.

معنى قول يوسف اذكرني عند ربك:

٧-ذكَرَ الأَحبارُ أَنَّ يوسف طلَبَ من رئيسِ السقاةِ الذي سيَنجو أَنْ يَذكرهُ لفرعونَ ليُخرجَه من السجن.

بينما أَخبرَ القرآنُ عن كلامِ يوسُفَ بقوله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ

بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾.

أرادَ بكلمةِ «ربِّك»: ملكِك. لأَنَّ ذلك الرجلَ كان يعتقدُ أَنَّ الملكَ ربٌّ له، والضميرُ في «أنساهُ» يَعودُ على الرجلِ الذي أُفرجَ عنه. ومعنى ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾: أنسى الشيطانُ ذلك الرجلَ الساقِيَ تذكيرَ الملكِ بيوسفَ المظلوم.

وقد يَحملُ بعضُهم الكلام على يوسُفَ عليه السلام، ويَظُنُّ أَنّ معنى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾: أنسى الشيطانُ يوسُفَ ذِكْرَ اللهِ ربِّه، فاعتمدَ على ذلك الرجلِ في خروجِه والإِفراجِ عنه! ولذلك عاقَبه اللهُ لاعتمادِه على غيره، فأَبقاهُ في السجنِ بضعَ سنين..

وهذا فهمٌ خاطئٌ للآية، لأَنَّ يوسُفَ عليه السلام نبي، ولا سُلطانَ للشيطانِ على النبيّ، فكيف يتسلَّطُ عليه الشيطانُ وينسيه ذكر ربه؟ فالراجحُ في معنى الآية هو ما ذكرناه، والله أَعلم..

يوسف يفسر رؤيا الملك:

تَحَدَّثَ الأَحبارُ في الإِصحاحِ الحادي والأَربعين عن رؤيا ملكِ مصر، وتفسيرِ يوسُفَ لها.

زَعَموا أَنه بعدَ مرورِ سنتَيْن من إِدخالِ يوسفَ السجنَ، رأى فرعونُ كأَنَّه واقفٌ على شاطئِ نهرِ النيل، فطلعَتْ من النهرِ سبعُ بَقَرات، حسنةِ

المنظرِ، سمانِ الأَبدان، وصارَتْ ترعى في المرْج، ثم طلعَتْ وراءَها من النهرِ سبعُ بقرات، قبيحةِ المنظرِ، هزيلَةِ الأبدان، ووقفَتْ بجانِبها على شاطئِ النهر، فأكَلَت البقراتُ القِباحُ المنظرِ الهزيلةُ البقراتِ الحسنةِ المنظرِ السمينة.

ثم نامَ فرعون، فرأى كأَنَّ سبعَ سنابل نبَتَتْ في ساقٍ واحدة، وهي ممتلئةٌ جَيِّدَة، وكأَنَّ سبعَ سنابلَ نحيلةٍ لفحَتْها الريحُ نبَتَتْ وراءَها، فابتلعت السنابلُ الهزيلةُ السنابلَ السمينة.

وفي الصباحِ استيقظ فرعونُ مضطرباً، فَدعَا جميعَ سحرةِ مصر وحكمائِها، وقَصَّ عليهم حُلْمَه، فلم يَقدِرْ أَحَدٌ منهم على أَنْ يفسِّرَه له.

فتذكَّر رئيسُ الطهاةِ يوسُفَ، وذَكَرَ لفرعونَ تفسيرَه للأَحلام .. فأَرسَل فرعونُ إلى يوسُفَ، فأَخْرَجوه من السِّجن، وبعدما حَلَقَ ذَقْنَه وأَبدَلَ ثيابَه، دَخَلَ على فرعون!

فقال له فرعون: قد رأَيتُ حُلْماً، ولم يكنْ مَنْ يفسِّرُه، وقد سمعتُ عنك أَنك إِذا سمعْتَ حُلْماً تُفَسِّره! فقال له: لستُ أَنا، بل اللهُ، هو يجيبُكَ الجوابَ السليمَ الذي فيه سلامَتُك..

فقصَّ فرعونُ على يوسُفَ ما رآه، من البقراتِ السبعِ والسنبلاتِ السبع .. فقالَ له يوسُفُ: أَنتَ حَلُمْتَ حُلْماً واحِداً، واللهُ أَوضحَ لك ما سيفعلُه.

السبعُ البقراتُ الجيدةُ هي سبعُ سنين، والسبعُ السنابلُ الجيدةُ هي سبعُ سنين، وهو حُلْمٌ واحد، والسبعُ البقراتِ النحيلةُ القبيحةُ الطالعةُ وراءَها، والسبعُ السنابلِ النحيلةُ التي لفحَتْها الريح، هي سبعُ سنينَ جوعاً، فالله أراكَ ما سيفعل .. ستَجيءُ سبْعُ سنينَ، فيها شَبَعٌ عَظيم، في كلِّ أَرْضِ مصر، ثم تجيءُ بعدَها سبْعُ سنينَ جوع، تُنْسي كلَّ ذلك الشبعِ، الذي كان في أَرضِ مصر، ويُتلفُ الجوعُ الأَرضَ، ويكونُ شَديداً جدّاً، فلا يتذكَّرُ أَهلُ البلادِ ما كانوا فيه من الشَّبَع، وما تِكرارُ الحُلْمِ على فرعون مَرَّتَيْن إلاّ لأَنَّ الأَمْرَ أَقَرَّهُ الله، وسيفعلُه عاجلاً».

ثم نصحَ فرعونَ أَنْ يَختارَ رَجُلاً فهيماً حَكيماً، يُقيمُه على أَرضِ مصر، ويُشرفُ عليها، ويأخُذُ خمسَ غَلَّتِها في سنواتِ الشبع، ويَخزنُ الطعامَ في المدن، ليكونَ ذخيرةً في سنواتِ الجوع..» [التكوين٤١: ١-٣٦].

هذا ما قالَه الأَحبارُ عن تفسيرِ يوسُفَ لِحُلْمِ فرعون، فما الذي قالَه القرآنُ عن تعبيرِ يوسفَ لرؤْيا الملك؟

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ

يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٤٣-٥٣].

الفرق بين كلام الأحبار وحديث القرآن عن الرؤيا:

والفرقُ بين الراويتَيْن في الأُمورِ التالية:

١-يُصِرُّ الأَحبارُ على إطلاقِ لقبِ فرعونَ على حاكمِ مِصْر الذي رأى الرؤيا، وهذا مردود، وقد أَطلقَ عليه القرآنُ لقبَ المِلِك، وهذا هو الصحيح.

٢-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ فرعونَ رأى حُلْمَين متتابعَيْن: حُلْمُ البقراتِ أَوَّلاً، ثم حلمُ السنبلاتِ ثانياً، وبينهما فاصل، حيث استيقظَ ثم نام.

بينما أَطلقَ القرآنُ عليهما رؤيا، وأَنها كانت رؤيا واحدة، وهذا ملحوظٌ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾.

٣-لم يَذكر الأَحبارُ قولَ السحرةِ الذين عَرَضَ عليهم فرعونُ حُلْمَه، وطلبَ منهم تفسيرَه، واكتفوا بقولهم: فلم يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُفَسِّرَه له.

أَمَّا القرآنُ فقد أَخبرَ عن ذلك، في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾.

وأَضغاثُ الأحلام، هي الأَحلامُ المتداخلة، ذاتُ المناظرِ المختلطةِ المتجمِّعة، والتي ليسَ لها رصيدٌ من الواقع.

الملِكُ يُسَمِّي ما رآهُ رؤيا، ويقولُ لهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾، وهم يسمّونَها أَحلاماً، ويردّون عليه قائلين: إِنها أَضغاثُ أَحْلام.

٤-حَدَّدَ الأَحبارُ أَنَّ رؤيا فرعونَ كانتْ بعدَ سنتَيْن من سَجنِ يوسف، وهذا التحديدُ ليس عليه دليل، لعدمِ ذكْرِه في القرآنِ والسنة، ولذلك نتوقَّفُ فيه ونسكتُ عنه ..

٥-فَصَّلَ الأَحبارُ الكلامَ عن حُلْمي الملِك، حولَ البقراتِ والسنبلات، وكَرَّروا ذلك الكلامَ أكثرَ من مَرَّة. بينما اكتفى القرآنُ بالإشارةِ المجملةِ إليها: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾.

٦-زَعَمَ الأَحبارُ أَنه عندما استُدْعِيَ يوسُفُ للملكِ حَلَقَ لحيتَه وغَيَّر ملابِسَه، مع العلم أنه لم يكنْ أَحَدٌ يحلِقُ لحيتَه في ذلك الزمانِ البعيد.

٧-زَعَمَ الأَحبارُ أَنه بمجردِ أَنْ سمعَ فرعونُ اسْمَ يوسف، وقدرَتَه على تفسيرِ الأَحلام، استَدْعاه وأَخبره بحُلْمِه، وفسَّرَه له يوسُف فوراً، وهذا زعمٌ مردودٌ، يقومُ على الادعاء والافتراض..

وقد أَخبرَ القرآنُ بضدِّه، فلما عَجَزَ الملأُ ورجالُ الحاشيةِ عن تفسيرِ رؤيا الملك، تذكَّرَ السجينُ المفرَجُ عنه يوسُفَ، وقدرَتَه على تعبيرِ الرؤيا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

ذهبَ ذلك الرجلُ إلى يوسُفَ في سجنه، وخاطَبَه بلقب: «الصِّدّيق»، وأَعادَ عليه ما رآهُ الملك، وطلبَ منه أَنْ يُعبِّرَ له تلك الرؤيا، ليُخبرَ الناس: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

٨-عَبَّرَ يوسُفُ الرؤيا للرجلِ الذي أتاه، ولم يُعَبِّرْها للملكِ كما زَعَمَ الأَحبار. البقراتُ السبعُ السَّمانُ والسنبلاتُ الخُضْرُ إشارةٌ إلى سبعِ سنواتٍ من الخَصْب، والبقراتُ العجافُ والسنبلاتُ اليابساتُ إشارةٌ إلى سبعِ سنواتٍ من المحلِ والجوع.

ولذلك قالَ يوسفُ للرجل: تزرعونَ سَبْعَ سنين دَأَباً. أيْ: تستغلّونَ سنواتِ الخصب والغيثِ، فتَنْشَطونَ في الزرع وتَدأبون، وتحرثون وتزرعون، لِتَحْصُلوا على أكبرِ كميةٍ من الحبوب، وتَدَّخِروها لسنواتِ المحْلِ والجوع.

٩-لم يَتَحدث الأَحبارُ عن نُصْح يوسفَ لهم باعتمادِ وسيلةٍ لحفظِ الحبوبِ مدةً طويلة، وهي التي ذَكَرَها القرآن في قوله: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ أيْ: أَبْقوا الحَبَّ في سنابِلِه، ولا تُخرجوه منها لئلاّ يأكُلَه السّوسُ، وهذه لفتةٌ زراعيةٌ تخزينية، دلَّتْ على حُسْنِ فقْهِ يوسفَ ومعرفتِه بها عليه السلام.

١٠- لم يَتحدث الأَحبارُ عن ما سيجري بعدَ السنواتِ الأَربعَ عشرة، أَمّا القرآنُ فقد ذَكَرَ ذلك في قوله: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي أَنَّ يوسُفَ أَخبرَ الرجلَ الرسولَ إليه، بأَنَّ الله سيُزيلُ السنواتِ السبعِ الشدادِ العجاف، ويأتي بعدَها بعامٍ خصَبٍ وغيث، يُغاثُ ويعصرُ الناسُ فيه.

١١- متى أُعجبَ الملكُ بيوسُف؟ أُعجبَ به بعدَما عادَ إليه رسولُه، وأَخبره بتعبير يوسفَ لرؤياه، وهذا أَمْرٌ جَهلَه الأَحبار، ولذلك لم يَذْكُروه.

وقد ذَكَرَ القرآنُ ذلك بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾.

الملك يعيد سؤال النسوة:

١٢- لم يَذكروا شيئاً عن رَدِّ يوسُفَ على دعوةِ الملكِ له، لأَنهم يَجهلونَ ذلك، أَما القرآنُ فقد ذَكَرَ أَنه عليه السلام لم يَتَعَجَّل الخروج، وإنما طلبَ إعادةَ محاكمتِه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

فأَعادَ الملكُ محاكَمَتَه، واستَدْعى النِّسوة، وسأَلَهنَّ عن الحادثة، فشهدْنَ ليوسُفَ بالعِفَّة، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن

نَفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾.

واعْترفت امرأةُ العزيزِ اعترافاً صَريحاً، شهدَتْ فيه ليوسُفَ بالعفّةِ والصدق، وأَدانَتْ نفْسَها، أنها هي التي راودَتْه. قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وبهذه المقابلةِ بينَ كلامِ الأَحبارِ وكلامِ القرآن عن رؤيا الملك، وملاحظةِ الفروقِ بينهما، نجدُ أَنَّ الأَحبارَ خَلَطوا الحَقَّ بالباطل، ففي كلامِهم بعضُ الحَقِّ والصواب، وهو الذي جاءَ القرآنُ مُصَدِّقاً له، وفيه الخطأُ والباطل، وهو الذي جاءَ القرآنُ مُصَحِّحاً له.

وهذا يَدُلُّ على تحريفِ الأَحبارِ لكلامِ الله في التوراة، وتأليفِهم الإِصحاحاتِ والرواياتِ من عندِهم، فكلامُهم يأْخُذُ صفةَ العملِ البشري.

كما أَنه يَدُلُّ على أَنَّ القرآنَ كلامُ الله، ولذلك لم يتفقْ مع ما وردَ في

سِفْرِ التكوين، وإِنما أَضافَ بعضَ اللقطات، وصَحَّحَ بعضَ المعلومات، ولو كانَ من تأليفِ بَشَر، لنقَل كلامَ الأَحبار. بما لَه وما عليه، ولذلك قال الله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

بين يوسف وإخوته

أَخْبَرَ الأَحْبارُ عن إعجابِ الملكِ ورجالِ الحاشيةِ بتفسيرِ يوسفَ لأَحْلامِه، وأَنَّ الملكَ أَرادَ تَسليمَ الأُمورِ إلى يوسف، وذلك عندما قالَ له: «بعدما أَعطاكَ اللهُ كلَّ هذه المعرفة، فلا فهيمَ ولا حَكيمَ مثْلُك، أَنتَ تكونُ وكيلاً على بَيتي، وإلى كلمتِكَ يَنقادُ كلُّ شَعْبي، ولا أَكونُ أَعظمَ منك إلاّ بالعَرْش .. وها أَنا أُقيمُك حاكماً على كلِّ أَرضِ مصرْ..

ونَزَعَ فرعونُ خاتَمَه من يدِه، وجعلَه في يَدِ يوسُف، وأَلْبَسَه ثيابَ كِتّان، وطَوَّقَ عُنُقَه بقلادةٍ من ذَهَب، ثم أَركَبَهُ مركبتَهُ الثانية، ونادى الحرسُ أَمامه: ارْكَعوا، وهكذا أَقامَهُ فرعونُ على كلِّ أَرضِ مصر ..

وقالَ فرعونُ ليوسف: أَنا فرعون، بدونِك لا يَرفعُ أَحَدٌ يَدَه ولا رجْلَه، في كلِّ أَرضِ مصر. وسَمّى فرعونُ يوسُفَ «صَفْنات فَعْنيح» [أَيْ: مخلِّصُ المملكة] وزوَّجَهُ أَسْناتَ بنتَ فُوطي كاهنِ مدينةِ «أُونْ» [مدينةُ هليوبوليس التي بِقُربِ القاهرة] وصارَ يوسفُ وَصِيّاً على أَرضِ مصر، وكانَ يوسُفُ ابنَ ثلاثين سنة.. [التكوين٤١: ٣٧-٤٦].

وهذا الكلامُ من الأَحبارِ وفْقَ طريقتِهم في تأليفِ أَسفارِ العهدِ القديم، ثم نسبتِها إلى الله كَذِباً وزوراً، وهي الطريقةُ القائمةُ على ذكْرِ تفاصيلَ ليس

عليها دَليل، ولَسْنا معهم في ما ذَكَروه، من أَنَّ الملكَ هو الذي عَرَضَ عليه تَوَلّي الأُمور، وأنه جعلَ كُلَّ شيءٍ في يدِه، وأنه أَلْبَسَه قلادةً من ذَهَب، فالنبيُّ لا يلبسُ الذَّهَبَ، ولو كانَ مُباحاً لقومِه، لأَنَّه يَختارُ الفعلَ الأَفضلَ والأَكملَ، المتفقَ مع نبوَّتِه ومنزلتِه ..

ولَسْنا مع الأَحبارِ في تحديدِ عمر يوسف، عندما تولَّى مقاليدَ الأُمور، ولا اسْمَ امرأَتِه، ولا في اللَّقَبِ الذي أَطْلَقَه الملكُ عليه «صَفْنات فَعنيح»، لعدمِ وجودِ دليلٍ على ذلك في مصادِرِنا الإسلامية.

وقد أَخْبَرَنا اللهُ في القرآنِ أَنَّ الملكَ أُعجِبَ بيوسف، وأَخْرَجَه من السجنِ ليستخلِصَه لنفسِه، وعند ذلك طلبَ يوسُفُ بلسانِه أَنْ يجعلَه على خزائنِ أَرضِ مصر، وذكَرَ أَهليَّتَه لذلك بأنه حَفيظٌ عليم.. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧].

واللطيفُ في حديثِ القرآنِ أَنَّه بعدَ أَنْ يَذكرَ المعلومةَ التاريخيَّةَ، يُعقبُ عليها بالإشارةِ إلى العبرةِ والعِظة، ويُذَكِّرُ بقَدَرِ اللهِ وحكمتِه ورحمتِه

وفضلِه سبحانه، وهذا التعقيبُ الإيمانيُّ التربويُّ الهادفُ لا يَعرفُه الأَحْبارُ ولا يَلْتَفتون إليه، لأَنهم فاقِدونَ لهذه المعاني والحقائقِ والقِيَم، وفاقِدُ الشيءِ لا يُعطيه لغيرِه!

اللقاء الأول بين يوسف وإخوته:

ذَكَرَ الأَحبارُ تفصيلاتٍ في عملِ يوسُفَ بعدَما صار حاكمَ مصر، ليسَ عليها دليل.

من ذلك زعمُهم أَنه أَثناءَ جمعِه غِلالَ سنواتِ الخصْبِ من مختلفِ مدن مصر، بلغَ من ذلك ما لا يمكنُ حصْرُه، لأَنه كان يُعادلُ الرملَ على شاطئ البحرِ كثرة، ولذلك تركَ إِحْصاءَه!

ومن ذلك زعْمُهم أَنه خلالَ سنواتِ الجوعِ والجدبِ لم يكنْ حَبٌّ ولا قمحٌ إلا في مصر، لأَنَّ يوسُفَ خزَّنَ القمحَ فيها، ولما طلبَ المصريّون من الملكِ الطعام، أَحالَهم على يوسف، الذي باعَهم إِياه.

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسفَ رُزِقَ بولَدَيْن قبلَ حلولِ سنينِ الجوع، فسمّى يوسفُ ابنَه البكر «مَنَسّى»، وقال: لأَنَّ اللهَ أَنساني كلَّ تَعَبي، وكلَّ أَهلِ بيتي .. وسمّى الثاني «أَفْرايم» وقال: لأَنَّ الله جعَلَني مثمراً في أَرضِ شَقَائي.. [التكوين٤١: ٤٧-٥٧].

وهذا الكلامُ نتوقَّفُ فيه، فلا نُصدِّقُه ولا نُكذِّبه، لعدمِ وجودِ دليلٍ عليه في مصادِرِنا الإِسلامية، فلا نقولُ شيئاً في اسمِ امرأَتِه، أَو أَسماءِ أَبنائه! ونقول: اللهُ تعالى أَعلم!

وتكلَّمَ الأَحبارُ عن اللّقاءِ الأَولِ بين يوسفَ وإِخوتِه، فَزَعَموا أَنه لما اشتدت المجاعَةُ في أَرضِ كنعان، نَصَحَ يعقوبُ أَبناءَه بالذَّهابِ إِلى مصْرَ لشراءِ القمح، فتوجَّهَ عَشَرَةٌ منهم إِلى مصر، وأَبْقوا ابْنَه الأَصغَرَ بنيامين عنْدَه.

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنه لما دَخَلَ الاخوةُ على يوسُفَ سَجَدوا له، ولم يَعْرِفوه، ولكنَّه عَرَفَهم، وتذكَّرَ جريمَتَهم معه، فأَرادَ أَنْ يَنتقمَ منهم، لذلك تَنَكَّرَ لهم، وأَساءَ معاملَتَهم، وكلَّمهم بِجَفاء!

قالَ لهم: من أَينَ جئْتُم؟ فأَجابوه قائلين: جئْنا من أَرضِ كنعانَ، لنشتريَ طَعاماً.

فاتَّهمهم بالتجسُّس، وقالَ لهم: أَنتم جواسيس، جئْتُم لتَرَوْا مواطنَ الضعفِ في البِلاد! فدافَعوا عن أَنفسِهم، لكنَّه واصَلَ اتِّهامَهم بالتجسُّس.

فكَشَفوا له عن هَويَّتِهم، وقالوا له: نحنُ قومٌ شُرَفاء، ولَسْنا جواسيس، ونحنَ أَبناءُ رجُلٍ واحدٍ في أَرضِ كنعان، ونحن اثنا عَشَرَ أَخاً، جئْنا عشرة، وأَصغَرُنا عند أَبيه، والثاني عشر مفقود!!

فَحَلَفَ يوسُفُ بحياةِ فرعونَ، أَنه سيسجِنُهم إنْ لم يأْتوه بأَخيهم الصغير! وقال لهم: وحياةِ فرعونَ، لن تَخْرُجوا من هنا، أَو يجيءَ أَخوكم الصغيرُ إلى هنا، أَرْسِلوا واحداً منكم ليجيءَ بأَخيكم، وأَنتم تُحْبَسون حتى نمتحنَ صدْقَ كلامِكم، وإلاّ فَقَسَماً بحياةِ فرعونَ أَنكم جواسيس.

فحبَسَهم ثلاثةَ أَيام .. وفي اليومِ الثالثِ قالَ لهم: أَنا رجلٌ أَخافُ الله، افْعَلُوا ما أَقولُ لكم لتَحْيُوا، واحدٌ منكم يبقى في هذا الحَبْس، وأَنتم اذْهَبوا ومعكم القمح، لِتَسُدّوا جوعَ أَهْلِ بيوتِكم، وجِيئوا بأَخيكم الصغيرِ إليَّ، لِيَظْهَرَ صِدْقُ كلامِكم..

فوافَقوا على ذلك، وقالَ بعضُهم لبعْض: لقد أَخْطَأْنا إلى أَخينا يوسف من قبلُ، رأَيْناه في ضيق، ولما استَرحَمَنا لم نسمعْ له، لذلك نزلَ بنا هذا الضيق!

فقالَ لهم أَخوهم رَأوبين: أَلم أَقُلْ لكم: لا تُسيئوا إلى الوَلَد؟ وأَنتم لم تَسْمَعوا لي، لذلك نحنُ الآنَ مُطالَبونَ بدَمِه ..

وما كانوا يَعلمونَ أَنَّ يوسُفَ يفهمُ لغَتَهم، لأَنه كان يستعينُ بترجمانٍ بينه وبينهم، فمالَ عنهم وبَكى، ثم عادَ إليهم وكَلَّمَهم، وأَخَذَ من بينهم شَمْعون، وقَيَّدَهُ أَمامَ عيونِهم.

وأَمَرَ يوسُفُ رِجالَه أَنْ يملأُوا أَوعيةَ إخوتِه قمحاً، ويَرُدُّوا فضَّةَ كلِّ واحدٍ

إلى عِدْلِه، ففعلوا، وحَمَلوا قمحَهم على حميرِهم، وعادوا إلى أَبيهم.

وفي الطريقِ وَجَدوا أَنَّ فضَّتَهم رُدَّتْ إليهم، فتعَجَّبوا، وقالَ بعضُهم لبعضٍ مرتعشين: ماذا فَعَلَ اللهُ بنا؟

ولما وَصَلوا إلى أَبيهم، أَخْبَروهُ بكلٍّ ما جَرى لهم في مصر، وأَنَّ أَخاهم شمَعونَ محبوسٌ عندَ عزيزِ مصْر، إلى أَنْ يأْتوا بأخيهم الصغير.

وعندما فَرَّغوا أَحمالَهم وَجَدَ كلٌّ منهم صُرَّةَ فضَّتِه في كيسِه، فخافوا وخافَ أَبوهم يعقوب، وقالَ لهم: أَفْقَدتُموني أَولادي: يوسُفُ مفقود، وشمعونُ مفقود، والآنَ تأْخذونُ ابني بنيامين! هذا كلُّه نزلَ عَلَيَّ!!

وتكفَّلَ رَأُوبين بالمحافظة على بنيامين، وقال لأَبيه: سَلِّمْه إِلَيّ، وأنا أَرُدُّه إليك، وإِنْ لم أَرُدَّهْ إليك فاقْتُلْ أَولادي.

ولكنَّ يعقوبَ رَفَضَ إِرسالَ ابنِه معهم، فبَقُوا فترةً من الزمان، أَكلوا فيها ما أَحْضَروه من القمح، واشْتَدَّ بهم الجوع. فطلبَ الأَبُ من أَبنائِه أَنْ يَعودوا إلى مصر، ليشْتَروا منها الحَبَّ والطَّعام..

فقالَ له يَهوذا: لقد هَدَّدَنا الرجل، وقال: لا تَرونَ وجْهي إلاّ وأَخوكم مَعَكم، فإنْ أَرسلْتَ أَخانا مَعَنا نَزَلْنا، واشْتَرَيْنا لك الطعام، وإِنْ لم ترسِلْه مَعَنا لم نَنْزِل.

وتكفَّلَ يَهوذا بالمحافظةِ على بنْيامين، وقالَ لأَبيه: أَرْسِلِ الفتى معي، حتى نَمضي، فنَحْيا ولا نَموت، نحنُ وأَنتَ، وأَطفالُنا جميعاً، أَنا أَضْمَنُه، ومِنْ يَدي تطلُبُه، وإِنْ لم أَعُدْ بِه إِليك سالماً فأَنا مخطئٌ إِليكَ طولَ الزمان..

فوافَقَ الأَبُ على إِرسالِه معهم مضطراً مُكْرَهاً، وأَمَرَهم أَنْ يأْخُذوا معهم هديةً ثمينةً إِلى عزيزِ مصر، من الفاكهةِ والعسلِ والفستقِ واللوزِ وغير ذلك، وأَنْ يُعيدوا الفضةَ المردودَة، وأَنْ يأْخُذوا معهم فِضَّةً أُخرى.

وأَخَذَ الأَبناءُ بُنْيامينَ والفضةَ والهديَّة، وتوجَّهوا إِلى مصر [التكوين٤٢: ١-٣٨، ٤٣: ١-١٦].

هذا ما ذَكَره الأَحْبارُ عن ما جَرى بين يوسفَ وإِخوتِه، فما الذي ذَكَرَهُ القُرآن؟

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ

أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف: ٥٨-٦٨].

الفروق بين كلام الأحبار وعرض القرآن:

وأهمُّ الفروقِ بين ما أورده الأحبارُ وذكره القرآن هي:

١- زعمَ الأحبارُ أنه لما دخل الإخوةُ على يوسفَ عرفهم، وتنكّرَ لهم، وكلَّمهم بجفاء، وأرادَ أنْ ينتقم منهم.

وهذا زعمٌ باطل، لأنَّ طبيعةَ يوسفَ السمحةَ ونفسَه المتسامحةَ، تأبى

عليهِ ذلك، وقد اكتفى القرآنُ بالإشارةِ إلى أنه عَرَفَهم بمجردِ دخولِهم عليه، أَمَّا هم فلم يَعْرفوه، لأَنهم لم يتوقَّعوا أَنْ يكونَ أَخوهم الصغيرُ هو عزيزَ مصرَ الآن!

٢-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسفَ اتَّهم إِخوتَه بالتجسسِ ضدَّ مصر، ولم يُصَدِّقْهم في دفاعِهم عن أنفسِهم، ولذلك حَبَسَهم ثلاثةَ أيام. وهذا زعمٌ مردود، لا يتفقُ مع تكريمه لهم الذي أَشارَ له القرآن.

٣-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسُفَ كان يحلِفُ لاخوته بحياةِ فرعونَ على أنهم جواسيس، وعلى أَنهم لن يَخْرُجوا من السِّجْن! وهذا زعمٌ غريبٌ عجيب، لأَن فرعونَ ملكٌ كافر، ويوسُفُ عليه السلام نبيٌّ كريم، فكيفَ يحلفُ النبيُّ بحياةِ الملكِ الكافر؟ ثم كيفَ يَجوزُ لنبيٍّ أَنْ يَحلفَ بغيرِ الله؟ مع أَنَّ الحلفَ بغيرِ اللهِ مُحَرَّم، لأَنه شركٌ بالله!

٤-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ الإِخوةَ تكلَّموا فيما بينَهم بلغتِهم بحضورِ يوسف، لأَنهم ظنَّوا أَنَّه لا يعرفُها، مع أَنه عرفَ كُلَّ كلمةٍ قالوها، ولما ذَكَّروا أَنفسَهم بما سبقَ أَنْ فَعَلوهُ بيوسُف، أَثارَ الأَمْرُ حُزْنَه، ومالَ عنهم وابتعدَ قليلاً، ثم بكى حُزْناً وبعد ذلك رجعَ إِليهم.

وهذا زَعْمٌ وافتراضٌ ليسَ عليه دليل.

٥-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسُفَ أَبقى شمعونَ مَحْبوساً عنده، وأَطلقَ سراحَ الإِخوةِ التسعةِ، ليَذْهَبوا إِلى أَبيهم، ويُحْضِروا معهم أَخاهم الصَّغير، وهذا زعمٌ مردود.

فقد ذكَرَ القرآنُ أنَّ يوسفَ طلبَ منهمِ الإتيانَ بأخٍ لهم من أبيهم، إنْ أرادوا شِراءَ قمحٍ مرةً ثانية، ولا داعيَ للخوضِ في كيفيةِ معرفتِه بأنَّ لهم أخاً صغيراً، لأنه يعرفُ ذلك باعتبارِه أخاً لهم، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ ﴾.

٦- زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ الإخوةَ حَمَلوا القمحَ على الحَمير، حيثُ كانَ لكلِّ واحدٍ حماراً، وَضَعَ عليه حملَه.

بينما أَشارَ القرآنُ إلى أنهم حَملوهُ على الجِمال، وكان لكلٍّ واحدٍ بعيرٌ يضعُ عليه حِمْلَه، ومعلومٌ أَنَّ الأَسفارَ البعيدَةَ تُستعملُ فيها الجِمالُ وليسَ الحمير، وجاءت الإشارةُ القرآنيةُ في قوله تعالى: ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وفي وقوله تعالى: ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢ ﴾.

٧- سَجَّلَ الأَحبارُ كلاماً كثيراً بينَ يعقوبَ وأبنائه، أثناءَ مراودتِهم له، لإقناعِه بإرسالِ أَخيهم معهم، ويَظهرُ في هذا الكلام يأْسُ يعقوبَ وإحباطُه وقُنوطُه، وهذا مما لا يتفقُ مع إيمانِه ويقينِه بربِّه، واعتمادِه عليه.

وهذا بعكسِ ما نَسَبَهُ له القرآنُ من عبارات إيمانية، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾، قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

وفَرْقٌ بعيدٌ بين اللهجةِ اليائسةِ التي يَنطِقُ بها يعقوبُ في رواياتِ الأَحبار، وبينَ اللهجةِ الإيمانيةِ التي ينطقُ بها في آياتِ القرآن، وما تُقَرِّرُه من حقائقَ عقيدية، ودروسٍ تربوية.

وصية يعقوب لأبنائه:

٨-لم يَتَكلمْ الأَحبارُ عن وصيةِ يَعقوبَ لأَبنائِه، أَنْ لا يَدخلوا من بابٍ واحد، وإنما يَدخلونَ من أَبوابٍ متفرقة. بينما أَخبرَ القرآنُ عن ذلك، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وقد أبهمَ القرآنُ السببَ الذي دَفَعَ يَعقوبَ إلى أَنْ يطلبَ من أَبنائِه ذلك الطلب، واكْتفى بقوله: ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾.

والأَوْلى أَنْ نُبقيَ تلك الحاجةَ على إبهامِها، فلا نَخوضُ فيها، ونَكِلُ العلمَ بها إلى اللهِ وحده.

ولا ننسى ثناءَ اللهِ على يعقوبَ عليه السلام، ويَكفيهِ هذا الثَّناءُ من الله، فهو صاحبُ علْم، عَلَّمهُ الله إيّاه، ويتصرَّفُ على أَساسِ ذلك العلم، ولذلك كانَ إِيمانُه باللهِ عظيماً، وتوكُّلُه عليه كبيراً.

كلام الأَحبار عن اللقاء الثاني بين يوسف وإِخوته:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ إِخوةَ يوسُفَ توجَّهوا إليه ومعَهم أَخوهم بنيامين، والهديةُ التي أَمرهم يعقوبُ بحملِها معهم، فلما رأى يوسُفُ أَخاه أَمَرَ بإِكرامِ الجميعِ في بيتِه، لِيتناولوا الطعامَ معه.

ولما الْتقى يوسُفُ في البيتِ سأَلَهم عن أَبيهم الشيخ، ثم نَظَرَ إلى أَخيه الصغيرِ بنيامين، فقالَ له بشوْق: أَنْعَمَ اللهُ عليك يا ابْني، ولما أَوشكَ على البكاءِ خَرَجَ إلى غُرفةٍ أُخرى فبكى فيها، ثم عادَ إليهم..

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنهم تَناولوا مع يوسُفَ الطعام، ثم شَرِبوا معه الخمرَ

حتى سَكِروا!!

ثم أَمَرَ يوسفُ وكيلَ بيتِه أَنْ يملأَ عِدْلَ كلٍّ واحدٍ منهم من القَمْح، وأَنْ يُعيدَ لهم الفضةَ التي أَحضروها، ثم أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ كأْسَه الفضِّيَّةَ في حِمْلِ أَصغرِهم بدون علمِهم .. وفي الصباحِ غادرَ الإِخوةُ البيتَ، عائدينَ إِلى ديارهم، وأَحمالُهم على حميرِهم..

فأَمَرَ يوسفُ وكيلَ بيتِه أَنْ يلحقَ بهم، ويَصيحَ فيهم قائلاً: لماذا كافأتم الخيرَ بالشَّرِّ؟ ولماذا سرقْتم كأسَ الفضةِ التي يشربُ بها سَيِّدي، وبها يَرى أَحوالَ الغيب؟ لقد أَسأْتم فيما فعلْتم!

ولما سمعوا هذا الكلامَ فوجِئوا به، ونَفَوْا أَنْ يكونوا سارقين، وقالوا: إِنْ وُجِدت الكأسُ مع أَحدِنا فاقْتُلْهُ، ونحنُ نكونُ عبيداً لك.

فقالَ لهم: مَنْ وُجدت الكأسُ معه يكون عَبْداً لي، وأَنتم تكونون أَبرياء. ففتَّشَهم مبتدِئاً بالأكبر حتى الأَصْغَر، فإِذا الكأسُ في عِدْل بنيامين!

فمزَّقوا ثيابَهم وعادوا إِلى يوسف، وأَعْلنوا أَنهم عَبيدٌ له، فأَعلنَ أنه سيأخذُ بنيامِين عَبداً، والآخَرونَ يَعودون إِلى أَبيهم.

كَلَّمَ يهوذا يوسُفَ، وأَعادَ عليهِ القصَّةَ كُلَّها، وصَوَّرَ له الخَطَرَ الذي سيحلُّ بيعقوبَ إن بقيَ بنيامين في مصر، وأَعلنَ استعدادَه أَنْ يكونَ عَبداً مكان بنيامين، على أَنْ يعودَ إِلى أَبيه!

عندَ ذلك حَزِنَ يوسُفُ حُزْناً شَديداً، واضطُرَّ إلى أَنْ يكشفَ عن هويَّتِه .. فأَمَرَ بإخراجِ كُلِّ الموجودين في المكان، ولم يَبْقَ إلا إخوتُه .. وبكى أَمامَ إخوتِه بكاءً شديداً، ثم قالَ لهم: أَنا يوسف! أَما زالَ أَبي حيّاً؟!

لم يَستطع الإِخْوةُ أَنْ يُجيبوهُ على سؤالِه لخوفِهم وفزعِهم .. فقالَ لهم: أَنا يوسفُ أَخوكم، الذي بعْتُموه للمصريّين. والآنَ لا تَأْسَفوا ولا تَكْتَئِبوا ولا تَسْتاءوا، لأَنكم بعْتُموني إِلى هنا، لأَنَّ اللهَ أَرسَلَني أَمامَكم لأَحفظَ حياتَكم، وقد مَضَتْ سنتا مجاعةٍ وبَقيتْ خَمسُ سنواتٍ منها .. فأَنتم لم تُرسلوني إِلى هنا، بل اللهُ هو الذي أَرسلَني، وجَعَلَني وَصيّاً عند فرعون، وسيداً لجميعِ أَهْلِه، ومتسلِّطاً على كلِّ أَرضِ مصر ..

فأَسرِعوا بالعودةِ إِلى أَبي وقولوا له: هذا ما يقولُه ابنُك يوسُفُ: جَعَلني اللهُ سَيِّداً لجميعِ المصريّين، تَعالَ إِلَيَّ ولا تَتَأَخَّرْ، لتُقيم في أَرضِ جاسان [منطقة الدلتا الشرقية] وتكونَ قريباً منّي، أَنتَ وبَنوك وبَنوا بَنيك، وغَنَمُك وبَقَرُك، وكلُّ ما هُو لَك..

وعانَقَ يوسُفُ بنيامين وبكى، وبكى بنيامينُ على عنقِه، وقَبَّلَ سائِرَ إِخوتِه، وبكى معهم، وصاروا يكلِّمونه ويحدِّثونه ..

وعلمَ فرعونُ باجتماعِ يوسفَ وإِخوتَه، فَحَسُنَ ذلك في عَيْنَي فرعونَ، وعيونِ حاشيتِه، وقالَ ليوسف: قلْ لإِخوتِك: حَمِّلوا دوابَّكم، وارجِعوا

إِلى أَرضِ كنعان، وخُذوا أَباكم وأَهْلَ بيوتِكم وتعالوا إِليّ، فأُعطيكم أَجودَ أَرضِ مصر، ولا تتأَسَّفوا على أَملاكِكم في أَرضِ كنعان، فإِنَّ خَيْرَ مصرَ كلِّها لكم، وأَجودَ أَرض مصرَ لكم.. » [التكوين ٤٣، ٤٤، ٤٥].

كلام القرآن عن اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته:

ولنقرأ الآن ما قاله القرآن عن هذه المشاهدِ من قصةِ يوسفَ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٦٩-٩٣].

ملاحظات على رواية الأحبار للقاء الثاني:

وعندما ننظرُ في كلامِ الأَحبارِ بمنظار القرآن فسوفَ نخرجُ بالملاحظاتِ التالية:

١-أوردَ الأَحبارُ تَفاصيلَ لا داعيَ لها لمائدةِ الطَّعامِ، التي أَمَرَ يوسفُ عليه السلام بإِعدادِها لإِخوتِه، قبلَ أَنْ يُعَرِّفَهم على نفسِه، مِن حيثُ أَصنافُها ومَنْ جَلَسوا عليها .. وهذه التفاصيلُ لا دليلَ عليها، وهي على طريقةِ الأَحبارِ في التأليف، التي تهتمُّ بالجزئيات، وتتركُ مواطنَ العِبَرِ والعِظات.

٢-زَعَمَ الأَحْبارُ أَنَّ يوسُفَ لما رأى أَخاه رَحَّبَ به ودَعا لَه، ومن شَوقِه له أَنه وَجَدَ في نفسِه حاجةً للبكاء، فغادرَ الجلسةَ إِلى غرفةٍ خاصةٍ بكى فيها، ثم عادَ إِلى إِخوتِه المنتظرينَ على المائدة.

وقد ذكَرَ القرآنُ أَنه بمجردِ أَنْ التقى يوسفُ مع أَخيه عَرَّفَه على نفسِه: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٣-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ الإِخوةَ بعدما تَناولوا الطعامَ مع أَخيهم شَرِبوا معه الخمرَ حتى سَكِروا.

وهذا زَعْمٌ باطلٌ مردود، والأَحبارُ حَريصونَ على تَشويهِ صورةِ الأَنبياء، والإِساءةِ إِليهم، فيوسُفُ نبيٌّ صِدِّيقٌ تقيٌّ كريمٌ عليه السلام، فكيفَ يَشربُ الخمرَ مع إِخوته؟ وكيفَ يَسْكَرُ مع إِخوتِه؟

إِنَّ هذا افتراءٌ وكذبٌ من الأَحبارِ المفترين على النبيِّ يوسفَ عليه السلام، ونحنُ نُنكرُه ونَرفضُه، ونُنَزِّهُ يوسفَ الكريمَ عنه!

٤-زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسفَ أَمَرَ وَكيلَ بيتِه أَنْ يُحَمِّلَ لإِخوتِه حَميرَهم من القمح، وأَنْ يُعيدَ لهم فضَّتَهم، وأَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ الكأسَ التي يشربُ فيها في رَحلِ أَخيه الصَّغير.

وهذا زَعْمٌ مردود، حيثُ ذَكَرَ القرآنُ أَنَّ يوسفَ هو الذي وَضَعَ السقايةَ في رَحْلِ أَخيه، دونَ أَنْ يَشعرَ به أَحد: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾.

٥-لم يتكلم الأَحبارُ عن الجائزةِ التي قُدِّمَتْ لهم مقابلَ إِعادةِ السقاية، بينما ذَكَرَ ذلك القرآن: ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

لقد كانت الجائزةُ مَنْحَ مَنْ يأْتي بالصُّواعِ حِمْلَ بعيرٍ من القمح .. ويدلُّ التعبيرُ بحملِ بَعير على أَنَّ دوابَّهم كانتْ جِمالاً، ولم تكنْ حَميراً كما زَعَمَ الأَحبار.

٦-لم يكُنْ كلامُ الأَحبارِ واضحاً في روايتِهم للحوارِ الذي جَرى بينَ الاخوةِ وبينَ يوسف، فاكْتَفوا بذكْرِ نَدَمِ الاخوةِ واستعدادِهم ليكونوا عبيداً له. بينما كانَ كلامُ القرآنِ واضحاً، حيثُ ذَكَرَ أَنَّ يوسفَ سَأَلَهم عن عقوبةِ السارقِ في شريعتِهم، فأَخْبَروه أنها الاسترقاق: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾.

٧-لم يَذكر الأَحبارُ شيئاً عن اتِّهامِ الإخوة لأَخيهم الغائب -يوسف- بالسرقة، وعن موقفِ يوسُفَ من ذلك الاتِّهام. بينما ذَكَرَ ذلكَ القرآن: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

٨-زَعَمَ الأَحْبارُ أَنَّ الإخوةَ اعْتَبَروا أنفسهم عَبيداً للرجل، ولكنه رفضَ أَخْذَهم عبيداً، ولم يَسْتَعْبِدْ إلا مَنْ وُجِدَ الكأسُ معه .. بينما كانَ كلامُ القرآن واضحاً، حيثُ عَرَضوا على يوسفَ أَخْذَ أَحَدِهم مكانَ الصغير، فرفضَ هذا واعتبرَه ظُلماً: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا

فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

٩-زَعَمَ الأَحبارُ أنه لما استعطَفَ الإِخوةُ يوسفَ رَقَّ لهم، وأنه تَأَثَّرَ كثيراً بكلامِ يَهوذا، وأَخرجَ الذين كانوا عنْدَه من غيرِ إِخوتِه، وانفجرَ أمام إِخوانِه بالبكاء، وعَرَّفَهم على نفسِه، أَيْ أنه عَرَّفَهم على نفسِه في زيارةِ إِخوتِه الثانية إِلى مصر.

وهذا زعْمٌ باطل، يَتعارضٌ مع ما وردَ في القرآن حيث ذَكَرَ القرآنُ أَنَّه عَرَّفَهم على نفسِه في زيارتِهم الثالثةِ لمصر. والصحيحُ هو ما وَرَدَ في القرآن.

من ما انفردَ القرآن بذكره عن الأَحداث:

١٠- نتجَ عن الملاحظةِ السابقة عدمُ كلامِ الأَحبارِ عن اللقطاتِ التالية، التي انفردَ القرآنُ بذكْرِها:

أ- بَقاءُ الأَخِ الكبيرِ في مصر بانتظارِ انتهاءِ مشكلةِ استرقاقِ الصَّغير، ويبدو أَنَّ هذا الكبيرَ كانَ أَميراً لهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ

عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

ب- طَلَبُ الأَخِ الكبيرِ الأميرِ من إخوانِه أَنْ يُخْبِروا أباهم بسرقةِ ابنه، وأَنْ يَسأَلَ الآخَرين عن ذلك إنْ لم يُصَدِّقْهم. قال تعالى: ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

ج- ما قالَه يعقوبُ تَعقيباً على الأَحداثِ المثيرة، وتسليمِه الأَمْرَ كلَّه إلى الله، قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

د- طَلَبُ يعقوبَ من أبنائه أَنْ يَعودوا إلى مصْرَ للمرةِ الثالثة، وأَنْ يَتَحَسَّسوا من يوسفَ وأَخيه، وأَنْ يتوكَّلوا على الله، وأَنْ لا يَيْأَسوا

من رَوْحِه سبحانه، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

١١- عَرَضَ الأحبارُ مشهدَ تعريفِ يوسُفَ إخوتَه على نفسِه بطريقةٍ جافَّة، ليس فيها إشارةٌ إلى عبرةٍ أو تذكيرٌ بإيمان، فهو يَبكي بصوتٍ مرتفع، يَسمعُه الجميع، وهو يذكُرُ لهم خلاصةَ قصتِه معهم، وهو يطلبُ منهم إخبارَ أبيهم بسلطانِه الكبير وحُكْمِه للمصريين.

أَما القرآنُ فقد ذَكَرَ ذلك مُرَكِّزاً على الدروسِ والعبر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

لا دور للملك في الأحداث:

١٢- زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ مَلِكَ مصر -هم يُصِرّونَ على أنه فرعون- فرحَ باجتماع شملِ يوسُفَ مع إِخوتِه، وشاركَ في تكريمِهم، حيثُ أَمَرَ أنْ يُحَمِّلوا دوابَّهم بالقمح، ويَعودوا إلى أَرضِ كنعان، ثم يأْتوا إِلى مصرَ، ومعهم أَبوهم وجميعُ أَهلهم.

وزَعَموا أَنَّ فرعونَ أَحَبَّهم وأَكْرَمهم، ووعَدَهم أَنْ يُعطيهم أَجودَ أَرضِ مصر، وأَفضلَ خيراتِ مصر. وهي أَرضُ «جاسان» الواقعةُ في الدِّلْتا الشرقية، وهي من أَخصبِ الأَراضي الزراعيةِ في مصر.

وهذا زعْمٌ ليس عليه دليل، وقد سَكَتَ عنه القرآن.

ودورُ فرعونَ مستمرٌّ في أَحداثِ قصةِ يوسفَ حتى لقطاتِها الأَخيرة، حسبَ مزاعمِ الأَحبار، فهم يُسْنِدونَ له أَفعالاً، ويَنسبونَ له أَقوالاً .. بينما انتهى دورُ الملكِ في العرضِ القرآني، عندما جَعَلَ يوسفَ على خزائنِ الأَرض، وسَلَّمَه منصبَ عزيزِ مِصْر، فلم تَذكُر الآياتُ شيئاً عن الملِكِ بعد ذلك، وكانت الأَحداثُ كلُّها مسندةً ليوسفَ عزيزِ مصر.

وهذا يدلُّ على أَنَّ الملكَ في فترةِ حكمِ يوسف كان مجردَ «رَمْزٍ»، ذي سلطةٍ معنوية، وليسَ حاكماً فعلياً، وإِنما كان الحكمُ الفعليُّ بيدِ العَزيز.

ويدلُّ اسْمُ «الملِك» و«العزيزِ» على أَنَّ حُكَّامَ مِصْرَ في تلك الفترةِ لم يكونوا من المصريّين الفراعنة، وإنما كانوا من الرعاةِ أَو الهكسوس، وهم قبائلُ عربيةٌ غَزَتْ مصرَ، وحَكَمَتْها في تلك الفترة..

آل يعقوب في مصر

تَحدَّثَ الأَحبارُ عن رجوعِ أبناءِ يعقوبَ إلى أبيهم في أَرضِ كنعان، ليأْتوا بهم إلى مصر، كما أَمرهم يوسف.

قالوا عن تَلَقّي يعقوبَ خبرَ الْتقائِهم بيوسفَ في مصر: «فصَعَدوا من مصْر، وجاءَوا إلى يعقوبَ أَبيهم في أَرضِ كنعان، وقالوا له: يوسُفُ حَيٌّ بَعْد، وهو متسلِّطٌ على جميعِ أَرضِ مصر!!

فَجَمَدَ قَلْبُه ولم يُصَدِّقْهم .. فلما أَخبروه بكلِّ ما قالَه يوسُفُ لهم، ورأى المركباتِ التي أَرسَلَها يوسف، انتعشَتْ روحُه، وقالَ لهم: كَفاني أَنَّ يوسُفَ ابني حَيٌّ بَعد، أَذهبُ وأَراهُ قبلَ أَنْ أَموت» [التكوين٤٥: ٢٥-٢٨].

لقد كانَ كلامُ الأَحبارِ جافّاً، خالياً من الإشارةِ إلى العبرةِ والعظة، وفاتَهم ذكْرُ بعضِ اللَّقطات، التي تَفَرَّدَ بها القرآنِ.

قميص يوسف يعيد بصر يعقوب:

ذَكَرَ القرآنُ أَمرَ يوسُفَ إخوته إحضارَ أَهْلِهم أَجمعين إلى مصر، وإعطاءَهم قميصَه ليُلْقوه على وجْهِ أَبيه، قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

[يوسف: ٩٣].

وحملَ القومُ القميص، وتوجَّهوا إلى أَبيهم، والمسافةُ بين مصرَ وكنعانَ بعيدة، ولما فَصَلَت القافلةُ عن مفترقِ طُرُقٍ، شَمَّ يعقوبُ ريحَ يوسفَ، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يوسف: ٩٤-٩٥].

ولم يُبَيِّن القرآنُ المفترقَ الذي فَصَلَتْ منه القافلة، هل هو في أَرضِ مصر، أَم في سيناءِ، أَم في أَرضِ كنعان، أَم آخرُ مفترقِ طُرُقٍ عند بيتِ يعقوب.

ولا نُشغلُ أَنفسَنا بتَبيين ما أَبهمه القرآن، لأَنه لا دليلَ عليه.

وقد كانت هذه معجزةً للنبيِّ يعقوبَ عليه السلام، وإلاّ فكيفَ يَجدُ ريحَ يوسفَ؟ وكيف يَشُمُّ رائحةَ قميصِ يوسفَ؟ وما مدى نفاذِ تلك الرائحةِ التي تُشَمُّ عن بُعْدِ مسافةٍ طويلة، تُقَدَّرُ بمئاتِ الأَميال؟

ولما وَجَدَ يعقوبُ ريحَ يوسُفَ قالَ لأَهلِه الذينَ حولَه: إني لأَجدُ ريحَ يوسفَ، وهو حَيّ، وأَنتم قد تُفَنِّدونَني ولا تُصَدِّقونَني .. فلاموهُ واتَّهموه بأَنه ما زالَ يعيشُ على الأَوهام، فيوسفُ ماتَ من قبلِ سنينَ عديدة!

وبعدَ ذلك وَصَلَت العيرُ بيتَ يَعقوب، وأَنزلَ الإِخوةُ أَحمالَ جِمالِهم، وحَمَلَ أَحدُهم قميصَ يوسف، وأَلقاهُ على وجْهِ أَبيه يعقوب، فارتَدَّ بصيراً.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

وهذه آيةٌ أُخرى من آياتِ الله، فما أَنْ أَلْقى البَشيرُ القميصَ على وجْهِ يعقوبَ حتى أَعادَ اللهُ له بَصَرَه، بقدرتِه وحكمتِه سبحانه.

ولما أَيقنَ يَعقوبُ بحياةِ يوسُفَ عليهما السلام ذَكَّرَ أَهْلَهُ بإحساسِه العميقِ الذي لم يُفارقْه منذ ما فَقَدَ يوسُفَ وهو صغير، إِحساسُه بأَنَّ يوسُفَ موجود، لكنه لا يَعرفُ أَينَ هو موجود: قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

واعترفَ الأَبناءُ لأَبيهم بخطئِهم معه، وكَذِبِهم عليه، عندما زَعَموا أَكْلَ الذئبِ ليوسُف، وما تَبِعَ ذلك من أَحداث، وطلبوا منه أَنْ يَستغفرَ اللهَ لهم ذنوبَهم، فوعَدَهم بذلك، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٧-٩٨].

هذه اللقطاتُ النهائيةُ من قصةِ يوسف عليه السلام لم يذكُرْها الأَحبارُ نهائياً، وقد انفردَ القرآنُ بذكْرِها، وهذا دليلٌ على أَنَّ القرآنَ من عندِ الله، وليس من كلامِ البشر.

اللقاء بين يعقوب ويوسف:

زَعَمَ الأَحْبارُ أَنَّ يَعقوبَ أَخَذَ أَهْلَه، وجاءَ إِلى بئرِ السبع، وهناك تجلّى

اللهُ له في رؤيا ليلية، فناداه: «يَعقوبُ، يعقوب! قال: نعم. قال الإله: أَنا اللهُ إِلهُ أَبيك، لا تَخَفْ أَنْ تَنزلَ إلى مصر، فسأَجعلُك أُمَّةً عظيمةً هناك، أنا أَنزلُ معكَ إِلى مصر، وأَنا أُصْعِدُك منها، ويوسفُ هو الذي يُغمضُ عينيك ساعةَ تموت..» [التكوين٤٦: ١-٤].

وتوجَّهَ يعقوبُ من بئرِ السبعِ إِلى مصر، ومعه جميعُ نسلِه، بَنوه وبَنو بَنيه، وبَناتُه وبَناتُ بَنيه .. وكان مجموعُ الذين دَخَلوا مصر من آلِ يعقوبَ سبعينَ نَفْساً .. وهذا الرقمُ نتوقَّفُ فيه، لعدمِ وجودِ دليلٍ عندنا يُصدِّقُه أَو يُكذِّبُه، المهمُّ أَنَّ يعقوبَ أَتى بأَهلِه جميعاً من أَرضِ كنعان إِلى أَرضِ مصر.

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ وأَهلَه توجَّهوا إِلى أَرضِ جاسان في منطقةِ الدِّلْتا، وهناكَ توجَّهَ يوسفُ للقاءِ أَبيه .. قالوا: «فلما رآهُ أَقبلَ عليهِ وعانَقَه، وبكى طَويلاً، فقالَ له يعقوب: دَعْني أَموتُ الآن، بعدما رأَيْتُ وَجْهَك، وعرفْتُ أَنك حَيٌّ..» [التكوين٤٦: ٢٨-٣٠].

حديث القرآن عن لقاء يوسف بأبيه:

أَما القرآن فقد ربَطَ بين بدايةِ قصةِ يوسفَ ونهايتِها في هذا اللقاء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ

هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٩-١٠٠].

أَبهمَ القرآنُ المكانَ الذي الْتقى فيه يوسُفُ بأبيه وأَهلِه، فقد يكونُ في عاصمةِ مصر، وقد يكونُ في جاسان، وقد يكونُ في غيرِهما.

ودخلَ يَعقوبُ وأَهلُه مصرَ آمِنين، واجتمعَ شملُهم، ولا يهمُّنا إِحصاءُ عَدَدِهم، وأَنهم كانوا سبعين فرداً، أَو أَقلَّ أَو أَكثر.

لقد الْتقى يوسُفُ بأَبَوَيْه، حيثُ آواهما إِليه، ورفَعَهما على العرش. وهذا معناهُ أَنَّ أُمَّهُ جاءَتْ مع أَبيهِ من أَرضِ كنعانَ إِلى مصْر، ولم تَمُتْ أثناءَ ولادتِها لأَخيه، كما زَعَمَ الأَحْبار.

وَخَرَّ أَبَواهُ وإِخوانُه له سُجَّداً، وكان سجودُهم له تَكريماً وتَفْضيلاً، وليس سجودَ عبادة، لأَنَّ سُجودَ العبادةِ لا يَكونُ إِلاّ لله، ويُجيزُ اللهُ لمنْ شاءَ من خلْقِه السجودَ لآخَرَ تكريماً له، كما حَصَلَ مع الملائكةِ في سجودِهم التكريميِّ لآدم.

أَمَّا في الإِسلامِ فقد نهى اللهُ المسلمَ عن السجودِ لأَيِّ مخلوق، حتى لو كان من بابِ التكريم، وهذا من بابِ المبالغةِ في تجريدِ التوحيدِ ونقاءِ العقيدة!

ومع أَنَّ الأَحبارَ ذكروا في بدايةِ سيرةِ يوسفَ عليه السلام الرؤْيا التي رآها وهو صغير، حولَ سجودِ الشمسِ والقمرِ مع أَحَدَ عَشَرَ كوكباً له، إلاّ أَنهم لم يذكُروا سجودَ أَبَوَيْه وإِخوتِه له.

أَمَّا القرآنُ فقد ذَكَرَ ذلك، وتعليقَ يوسفَ عليه السلام عليه، وربْطَه بين الرؤيا قبلَ سنواتٍ وبين تأْويلِها العمليِّ الآن: ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ ﴾.

إِنَّ شُكْرَ يوسفَ لله ربِّ العالمين، واعترافَه بفَضْلِه عليه، معنى لا يَعرفُه الأَحبارُ الكفار، ولذلك لا يذكرونَه في تأْريخِهم لسيرةِ يوسفَ عليه السلام.

القرآنُ الكريمُ هو الذي يَذْكُرُ ذلك، لأَنه كتابُ تربيةٍ وتزكيةٍ وتهذيب، يوظِّفُ قَصَصَهُ الصادقَ لهذهِ الغايَة، ويَدْعو إلى استخلاصِ الدروسِ والعبرِ والعظات: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

يعقوب لم يبارك فرعون:

وقد زَعَمَ الأَحبارُ أنه بعدما التقى يوسفُ بأَبيه، دَعاهُ إلى الاجتماعِ بفرعون، وقَبْلَ اجتماعِه به، أَمَرَ يوسُفَ أَنْ يُسْكِنَ أَهْلَه في أَفضلِ أَرضِ

مصر، وقالَ له: أَبوكَ وإِخوتُكَ جاءوا إِليك، فهذِه أَرضُ مصْرَ بين يدَيْك، أَنْزِلْهم بأَجودِها، ودَعْهم يُقيمونَ بأَرضِ جاسان، وإِنْ كنتَ تعلمُ أَن فيهم قادرين على العَمل، فأَوْكِلْهم على ماشِيَتي.

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يوسفَ أَدخلَ أَباهُ على فرعونَ ليباركَه، قالوا: «وأَدخلَ يوسُفُ يعقوبَ أَباه، وأَوْقَفَه بين يَدَيْ فرعون، فباركَه يَعقوبُ! وقالَ له فرعون: كم لك من العمر؟ فأَجابَه يَعقوبُ: أَيّامُ غُرْبَتي مائةٌ وثلاثونَ سنة، قليلةً وسيئةً كانتْ أَيامُ حياتي، على غيرِ ما كانتْ حياةُ آبائي في غُربتِهم .. وبارَكَ يعقوبُ فرعونَ، وخرجَ من بينِ يديه..» [التكوين٤٧: ١-١٠].

نرفضُ اللهجةَ البائسةَ المتشائمة، التي نَسَبَها الأَحبارُ ليعقوبَ عليه السلام، لأَنَّها لا تتفقُ مع نبوَّتِه وشخصيتِه المؤمنةِ بالله، الشاكرةِ له، الراضيةِ بقدره.

أَمَّا مباركةُ يعقوبَ النبيِّ عليه السلام للملكِ الكافرِ فرعون، فهذا زعْمٌ باطلٌ من مزاعمِ الأَحبارِ الكفار.

إِنَّ الأَحبارَ لا يَنطلقونَ في مؤلَّفاتِهم ورواياتِهم من منطلقاتٍ إِيمانية، وإِنَّ الذي يُحركُ شخصياتِ الأَنبياء التي يتحدَّثون عنها ليس الإِيمان، وإِنما المصلحةُ والمنفعة، والعنصريةُ والأَنانية.

يَعقوبُ النبيُّ لا يَجدُ مانعاً من أَنْ يُبارِكَ الكافرَ فرعونَ في زعْمِ الأَحبار،

وليس مهمّاً إيمانُه أَو كفرُه، إنما المهمُّ إكرامُه ليعقوبَ وأبنائِه.

وهذا الزعمُ مردودٌ عندنا، لأَنَّ يَعقوبَ نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، وفرعونُ كافرٌ بالله، ولا يُبارِكُ النبيُّ كافِراً مشركاً بالله!

هل يوسف سمسار لفرعون؟

الأَحبارُ حَريصونَ على تَشويهِ سُمعةِ الأَنبياء، وتَقبيحِ أَفعالِهم وأَقوالِهم، ولذلك اتَّهموا يوسُفَ عليه السلام بأَنه جعلَ فترةَ حكْمِه وولايتِه وسيلةً لنهبِ أَموالِ الناسِ ومُمتلكاتِهم، وتحويلِهم عَبيداً لفرعون.

قالَ الأَحبار: «ونَفِدَ الخبزُ في كلِّ مكان، واشْتَدَّت المجاعةُ، حتى خارَتْ قوى أَهْلِ مِصْرَ وأَرضِ كنعانَ من الجوع.

وكانَ يوسُفُ يَجْمَعُ كُلَّ الفضة، التي كانوا يَشْتَرونَ بها القمح، ويَجيءُ بها إلى بيتِ فرعون .. ولما نفِدَت الفضةُ من أَرضِ مصْرَ ومن أَرضِ كنعان، جاءَ المصريّون إلى يوسف، وقالوا له: أَعْطِنا خبزاً، أَنَموتُ أَمامَ عينَيْك، لأَنَّ فضَّتَنا نَفِدَتْ؟

فقالَ لهم يوسف: إنْ كانتْ فضَّتُكم قد نَفِدَتْ، فهاتوا ماشِيَتكم، أَبِعْكُم خُبْزاً بها! فجاءوا يوسُفَ بماشِيَتِهم، فأَعطاهم خبزاً بالغنمِ والبقرِ والحميرِ والخيلِ في تلك السنة.

ولما انْقَضَتْ تلك السنةُ جاءَ المصريّون إلى يوسف، وقالوا له: لا نُخْفي عليك يا سَيِّدي أنَّ الفضةَ قد نَفِدَتْ، وما شِيَتُنا عندك، وما بَقي عندنا ما نُعطيك إلا أَبدانُنا وأَراضينا، أَنَهْلَكَ أَمامَ عينيك؟ اشْتَرِنا نحنُ وأَراضينا بالخبزِ، فنصيرَ بأَراضينا عَبيداً لفرعون، وأَعْطِنا بذاراً فَنَحيا ولا نموت، ولا تَصيرُ أَراضينا بوراً!

فاشْتَرى يوسُفُ جَميعَ أَراضي المصريّين لفرعون، لأَنَّ كُلَّ واحدٍ منهم باعَ حَقْلَه من شدةِ الجوع، فصارت الأَرضُ لفرعون، والشعبُ عبيداً له، من أَقْصى حدودِ مصْرَ إلى أَقْصاها..

وقالَ يوسفُ للشعب: أَنا اشتريتُكُم اليوم، أَنتم وأَراضيكم لفرعون! فخذوا لكم بِذاراً تَزْرَعونَه في الأَرض، وعندَ الحَصادِ تُعطونَ خُمُسَ غِلالِكم لفرعون، والأَربعةُ الأَخماسُ الباقيةُ تكونُ لكم بِذاراً للحقول، وطَعاماً لكم ولعيالكم..

فقالوا له: أَنقذْتَ حياتَنا، ليتَنا نحظى برضاك يا سيدي، فنكونُ عبيداً لفرعون.. » [التكوين٤٧: ١٣-٢٥].

يوسُفُ عليه السلام -حسبَ مزاعمِ الأَحبار- تحوَّلَ من نَبيٍّ مصلحٍ إلى «سمسار» لفرعون، وبدلَ أَنْ يَنشُرَ الخيرَ على المصريّين في فترةِ حكْمِه، جعلَها فترةَ استعبادٍ لهم، واستغلَّ حاجَتهم وجوعَهم لشراءِ كلِّ ما عندَهم

مقابلَ الخبزِ الذي يقدمُه لهم .. اشترى منهم كلَّ فضَّتِهم وأموالِهم، ثم اشترى منهم أنعامَهم ومواشيهم، ثم اشترى منهم أَراضيهم، ثم اشترى منهم أَنفسَهم وأَبدانَهم .. ووجَّهَ كلَّ ذلك لفرعون! وبذلك حَوَّلَهم من أَحرارٍ إلى عبيدٍ لفرعون، وحَوَّلَهم من مالكين لأَراضيهم إلى أُجَراءَ فيها، خَدَمٍ لفرعونَ!!

ونحنُ نَرُدُّ هذا الافتراءَ والكذب، وننزهُ النبيَّ الكريمَ يوسفَ عليه السلام عن ذلك الظلمِ والبغيِ والاستغلال، ونَعتقدُ أَنَّ أَفعالَه كلَّها تَبْدو فيها رحمتُه وعطفُه وإِحسانُه .. وقاتلَ اللهُ الأَحبارَ الكفار!!

كلام الأَحبار عن وصية يعقوب قبل موته:

زَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يعقوبَ عاشَ في مصرَ سَبْعَ عشرةَ سنة، وأَنه مرضَ قبلَ وفاتِه، فاستدعى ابْنَه يوسف، وأَوصاهُ أَنْ لا يَدفنَه في مصْرَ، وإِنما يحملُه إِلى حبرونَ في أَرضِ كنعان، ويدفنُه في مغارةِ المكفيلَة هناك، عند أَبَوَيْه إِبراهيمَ وإِسحاق، وطلبَ منه أَنْ يحلفَ باللهِ على إِنفاذِ هذه الوصية ففعَل، وحلفَ باللهِ على ذلك. [التكوين٤٧ : ٢٧-٣١].

وأَرادَ يوسفُ أَنْ يباركَ أَبوه ابْنَيْه منَسّى وأَفْرايم قبلَ موتِه، فجاء بهما معه، فباركَهما يعقوب، وجَعلَهما كأَولادِه، وصارا أَبَوَيْ أَسباط: أَبناءُ يعقوب العشرة -باستثناء يوسف ولاوي- ومنَسّى وأَفْرايم.

وزَعَمَ الأَحبارُ أَنَّ يَعقوبَ قالَ ليوسف: «والآنَ يا يوسف: ابْناكَ اللَّذانِ وُلِدا لكَ في أَرضِ مصر قبلَ مَجيئي يكونان لي، مثلَ رَأُوبين وشَمْعون، ومَنْ يولَدُ لكَ بعدَهما فلا يكونُ لي، وإِنما يكونُ لك!

وقَبَّلَ يعقوبُ منَسّى وأَفْرايم، واحتَضَنَهما، وقالَ ليوسف: ما كنتُ أَظُنُّ أَني أَرى وجْهَك، فأَراني اللهُ نَسْلَك..

وقَدَّمَ يعقوبُ الصغيرَ أَفْرايم على الكبيرِ مَنَسّى، ودَعا له بالبركة، وقال: مَنَسّى يكونُ شَعْباً عظيماً، لكنَّ أَخاهُ الأَصغَرَ يكونُ أَعظمَ منه، ويكونُ نسْلُه عدةَ أُمم. وقالَ لهما: تكونان بركةً في بني إِسرائيل..

وقال يعقوبُ ليوسف: دَنَتْ ساعةُ موتي، وسيكونُ اللهُ معكم، ويردُّكُم إِلى أَرضِ آبائِكم، وأَنا أَعطيتُك شَكيمَ علاوةً على إِخوتِك، وهي التي أَخَذْتُها من يَدِ الأَمُوريّين بسَيْفي وقَوْسي!..» [التكوين٤٨: ١-٢٢].

يُقَدِّمُ الأَحبارُ يعقوبَ عليه السلام في الساعاتِ الأَخيرةِ من حياتِه، في صورةِ الحريصِ على الدنيا، وتَوريثِ الأَرضِ لأَبنائِه، وليسَ في صورةِ الزاهدِ في الدنيا، المقبلِ على الآخرة.

وَيزعمُ الأَحبارُ أَنَّ يَعقوبَ جمَعَ قُبَيْلَ وفاتِه أَبناءَه الإِثْنَي عشر، ليُخبرَ كلَّ واحدٍ بما سيحدُثُ له في المستقبل، قالوا: «ثم دعا يعقوبُ بَنيه، وقال: اجتمعوا لأُنبئكم، بما يَحدُثُ لكم في الأَيامِ التالية.

وخَصَّصَ الأَحبارُ الإِصحاحَ التاسعَ والأَربعين لذكْرِ ما قالَه يعقوبُ لكلِّ واحدٍ من أَبنائِه» [التكوين٤٩ : ١-٢٨].

وقُبيلَ خُروجِ روحِه أَوصى أَبناءَه أَنْ يَدفِنوه في مغارةِ المكفيلة، التي في حَقْلِ عَفْرون الحِثّي في حَبْرون.

وفَصَّلَ الأَحبارُ في الإِصحاحِ الخمسين خروجَ يوسفَ وإِخوتِه ورجالِ الدولةِ المصرية بجنازةِ يعقوب، من مصرَ إِلى سيناء، إِلى العربة وإِلى الأُردن، ثم الدخولُ من هناك إِلى حبرون، ودَفْنِ يعقوبَ في المغارة. [التكوين٥٠ : ١-١٤].

حديث القرآن عن وصية يعقوب قبل موته:

لقد شَوَّهَ الأَحبارُ سيرةَ النبيِّ يعقوبَ عليه السلام، حتى لحظاتِ حياتِه الأَخيرة، ولا يكادُ القارئُ لسيرتِه يجدُ له موقفاً إِيمانيّاً دعويّاً، حتى وهو على فراشِ الموت!

المسلمُ العادي عندما يَدْنو أَجَلُه يُقْبِلُ على ربِّه، ويَنظرُ إِلى آخرتِه، ويوصي أَهلَه بالخيرِ والبرِّ، والطاعةِ والعملِ الصالح، ويُكثرُ من التضرعِ إِلى اللهِ واستغفارِه، فكيفَ بالنبيِّ الذي يُوَدِّعُ دنياهُ ويستقبلُ آخرتَه ..

شَتّانَ بينَ ما زَعَمَه الأَحبارُ من وصيةِ يعقوبَ الأَخيرةِ لأَبنائِه، وبين الحقيقةِ التي ذكَرَها القرآنُ حولَ تلك الوصية.

إنَّ يعقوبَ عليه السلام نبيٌّ كريم، حريصٌ على الإيمان والدعوة، عاشَ حياتَه من أَجلها، وعندما شَعَرَ بدنوِّ أَجَلِه أوصى أَبناءَه بها، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

دينُ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ هو الإسلام، وكلٌّ منهم كان يوصي أَبناءَه بالإسلام، وكلٌّ منهم كانَ يَقولُ لأَبنائِه: ﴿ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

ولما حَضَرَ يعقوبَ الموتُ، جمعَ أَبناءَه الاثْنَيْ عشر حولَه، ليوصِيهم وصيةً إِيمانيةً رفيعة، وليطمئِنَّ على دينِهم بعدَ وفاتِه، ولذلك سأَلَهم: ما تعبدونَ من بَعْدي؟ فأَجابوه بما يطمئنُه: نعبدُ إلهك وإِله آبائك، إِبراهيمَ وإِسماعيلَ وإِسحاق، إِلهاً واحداً ونحنُ له مسلمون.

وهكذا عاشَ يعقوبُ بالإِسلام، وماتَ على الإِسلام، وأَوصى بَنيه بالإِسلام!

وفاة يوسف عليه السلام:

لم يكنْ حَديثُ الأَحبارِ عن وفاةِ يوسفَ أَفضلَ من حديثِهم عن وفاةِ أَبيه يعقوبَ عليهما السلام.

لم يَذْكُروا له كلمةً واحدةً حولَ الإِيمانَ أَو الدعوةِ، أَو الإِقبال على الآخرة، وقَدَّموه -كأَبيه- حريصاً على توريثِ أَهْلِه أَرضَ كنعان، وعلى دفنِه في مغارةِ المكفيلَةِ عند آبائِه.

قالوا: «وأَقَامَ يوسفُ في مصْرَ، هو وأَهْلُ بيتِه وبيتِ أَبيه، وعاش مائةً وعشْرَ سنين، ورأى يوسُفُ من بَني أَفْرايم الجيلَ الثالث، وبنو ماكيرَ بنِ منَسّى وُلِدوا على ركبَتَيْه.

وقالَ يوسفُ لإِخوتِه: حانَتْ ساعةُ موتي، واللهُ سيذْكُرُكُم بالخير، ويُخرجُكم من هذه الأَرض، إِلى الأَرضِ التي أقسمَ عليها لإِبراهيمَ وإِسحاقَ ويعقوب..

واستحلفَ يوسفُ بني إِسرائيل إِخوتَه قائلاً: حين يذكُرُكُم اللهُ بالخير، خُذوا عِظامي معكم من هنا.

وماتَ يوسُفُ وهو ابنُ مائةٍ وعشْرِ سنين، فحنَّطوهُ ووضَعوهُ في تابوتٍ بمصر..» [التكوين٥٠: ٢٢-٢٦].

هذا ما قالَه الأَحبارُ عن وفاةِ يوسُف ، أَمَّا ما قالَه القرآنُ فهو الحَقُّ والصوابُ ، حيث صَوَّرَه لنا زاهداً في الدنيا ، مُقْبِلاً على الآخِرةَ ، ذاكِراً لربَّه ، شاكِراً له ، هَدَفُه أَنْ يتوفّاهُ اللهُ مسلماً ، وأَنْ يُلْحِقَه بالصالحين ، قال تعالى : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف : ١٠١].



فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

كتب صدرت للمؤلف

١. سيد قطب الشهيد الحي.

٢. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.

٣. أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.

٤. مدخل إلى ظلال القرآن.

٥. المنهج الحركي في ظلال القرآن.

٦. في ظلال القرآن في الميزان.

٧. مفاتيح للتعامل مع القرآن.

٨. في ظلال الإيمان.

٩. الشخصية اليهودية من خلال القرآن.

١٠. تصويبات في فهم بعض الآيات.

١١. مع قصص السابقين في القرآن.

١٢. البيان في إعجاز القرآن.

١٣. ثوابت للمسلم المعاصر.

١٤. إسرائيليات معاصرة.

١٥. سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.

١٦. لطائف قرآنية.

١٧. هذا القرآن.

١٨. حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.

١٩. الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.

٢٠. التفسير والتأويل في القرآن.

٢١. الأتباع والمتبوعون في القرآن.

٢٢. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.

٢٣. الخطة البراقة لذي النفس التواقة.

٢٤. تفسير الطبري: تقريب وتهذيب: ١-٧.

٢٥. الرسول المبلغ ﷺ.

٢٦. القصص القرآني: ١-٤.

٢٧. تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس.

٢٨. تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.

٢٩. القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية.

٣٠. سيد قطب: الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد.

٣١. صور من جهاد الصحابة.

٣٢. إعجاز القرآن الرباني ودلائل مصدره الرباني.

٣٣. مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.

٣٤. سعد بن أبي وقاص: المجاهد الفاتح.

٣٥. الحرب الأمريكية بمنظار سيد قطب.

٣٦. سيرة آدم عليه السلام: دراسة تحليلية.

٣٧. بين الإسلام الرباني والإسلام الأمريكاني

٣٨. عتاب الرسول في القرآن: تحليل وتوجيه

٣٩. وعود القرآن بالتمكين للإسلام

٤٠. حديث القرآن عن التوراة.

٤١. جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العهد القديم.

٤٢. الأعلام الأعجمية في القرآن.

٤٣. سفر التكوين في ميزان القرآن الكريم: من آدم إلى إبراهيم.

٤٤. سفر التكوين في ميزان القرآن الكريم: أولاد إبراهيم عليه السلام.